تيسير البيان
عن
إعجاز القرآن

الدكتور محمود الزين

قدم له
الشيخ عبد الهادي بدلة

طباعة نشر توزيع

محفوظة
جميع الحقوق

رقم الموافقة: / ٩١٤٣٤ / ٢٠-٣-٢٠٠٦م
التصنيف الموضوعي : علوم القرآن
الموضوع: إعجاز القرآن
العنوان: تيسير البيان عن إعجاز القرآن
المؤلف: الشيخ الدكتور : محمود الزين
عدد الصفحات: ١٠٠ صفحة ، قياس: ١٤ X ٢٠
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

عالم القرآن الكريم

سوريا – حلب – تجميل القرقان – شارع الشيخ محمد رفعت – أمام جامع السعد

هاتف رباعي : ٢٠٩٨ ٢١ ٩٦٣+ فاكس : ٢٦٣٤٣٢١ ٢١ ٩٦٣+

جوال : ٩٩٦٤٦٤ ٩٤ ٩٦٣+ ص.ب : ١٦٤٠٠

الموقع الإلكتروني : www.hqwv.com

أول محرك بحث مختص بالقرآن والسنة وعلوم الدين الإسلامي : www.alawfa.com

مقدمة لفضيلة الشيخ
عبد الهادي بدلة
حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الرحيم الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ،والصلاة والسلام على سيدنا محمد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب، وأعطي من الآيات ما آمن عليه ذوو الألباب ((ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو الله أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة))

البخاري /٤٩٨١/ مسلم /١٥٢/

لقد كتب الكثيرون في إعجاز القرآن ، وتناولوه بجميع ألوانه وضروبه ، فأجادوا وأمتعوا وأفادوا ، ولا يزال بحر القرآن

الزاخر يقذف باللؤلؤ والجواهر ... لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء...ولو كان الإعجاز بالأسلوب وحده لكان دليلاً كافياً على أنه من عند الله وأن حامله مرسل من الله لا ريب ... فكيف إذا انضم إلى ذلك ألوان كثيرة من الإعجاز كالإخبار بالغيب، وما يزال كل عصر يطرح الجديد الجيد، من الحقائق والدقائق، في كل ميادين العلوم والحياة وليس في وسع البشر مهما أوتوا من علم وبلاغة و قدرة وبيان أن يأتوا ببعضه ناهيك عن كله ...وتأتي أهمية هذا الكتاب في أنه قصد إلى التيسير فكان التوفيق من الله حليف مؤلفه والمطاوعة من اللغة رفيق مصنفه، ولما كان أكثر الناس ليس لديهم الوقت الكافي لقراءة الطويل من المؤلفات في عصر فاضت فيه المعلومات وراجت فيه المطويات وضعف العلم بالعربية وأسلوبها والبلاغة وأسرارها فاشتدت الحاجة إلى مثل هذه الموضوعات بعد أن كثر الشانئون للكتاب وساروا على طريق

مسيلمة الكذاب. جاء ((تيسير البيان)) هدية مناسبة للإنسان والزمان لاسيما ومؤلفه نجم مضيء من نجوم السيد النبهان (رضي الله عنه) وعلم من أعلام حلب الشهباء الأستاذ الدكتور الفاضل { محمود أحمد الزين } حفظه الله وحماه ، الذي حباه الله من فضله الكثير ، وأكرمه بنعمة التيسير ... تقرأ له فتجد نفسك تنتقل بين السطور، من غير ملل ولا فتور ، وتصل إلى عميق المعاني في أقل من الثواني فيأخذك العجب من إعجاز القرآن، وتتملكك النشوة من سحر البيان .

والله نسأل وهو الواحد الديان أن يجعلنا وإياه من حماة وحملة القرآن

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد أشرف ولد عدنان وعلى آله وأصحابه في كل حين وآن

تمتاز هذه الطبعة

١. بافتتاح الكتاب بآيات مناسبات لم تكن فيما تقدم من الطبعات.

٢. بضبط النص بالشكل وهو من باب التيسير والفضل.

٣. بذكر الفهارس وهي مهمة يقدرها الممارس.

٤. استخدام ثلاثة ألوان ، وهو أمارة لعالم القرآن ، الأخضر للآيات والأحاديث، والأزرق للموضوع والأحمر للعنوان .

٥. زيادات وإضافات فيها أمور مهمات.

٦. تقريظ محدود على أسلوب الدكتور محمود .

٧. سطور عن الكاتب من باب ((حدوا المراتب)) .

قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١).

****

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٢).

****

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ (٣).

****

(١) سورة البقرة، الآية (٢٣).

(٢) سورة النساء، الآية (٨٢).

(٣) سورة هود، الآية (١٣).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١).

****

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (٢).

****

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٣).

****

(١) سورة الحجر، الآية(٩).

(٢) سورة النحل ، الآيتان (٦٨ــ٦٩).

(٣) سورة الإسراء، الآية (٨٨).

التعريف بالمؤلف

فضيلة الشيخ الدكتور محمود أحمد الزين

* مواليد سورية حلب ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م .

* درس الإعدادية والثانوية بدار نهضة العلوم الشرعية ((المدرسة النبهانية)) في حلب وتخرج عام ١٩٧٤ م .

* حصل على الليسانس والماجستير والدكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ــ وقد نوقشت رسالة الدكتوراه عام ١٩٩٣ م .

* عمل مدرساً لـ اللغة العربية وأصول الفقه في دار نهضة العلوم الشرعية منذ عام ١٩٨٥م حتى عام ١٩٩٧ م .

* يعمل كبير باحثين في دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي منذ عام ١٩٩٧ م حتى الآن.

له كتب وبحوث متعددة :

١ــ المباحث البلاغية في تفسير الطبري ــ علم المعاني ــ وهو رسالة الدكتوراه (غير مطبوع) .

٢ــ شرح الشواهد القرآنية في كتاب الإيضاح ــ للقــزويني ــ وهو رسالة الماجستير (غير مطبوع) .

٣ــ زيارة النبي دراسة تأصيلية على ضوء الكتاب والسنة وآثار السلف (مطبوع) .

٤ــ رسالة في أثر القرآن في ترسيخ الإخاء الإســلامي وتجنــب الافتراق (مطبوع) .

٥ــ رسالة في الدعاء بعد الــصلاة المفروضــة ســنة أم بدعــة (مطبوع) .

٦ــ رسالة في فقه السلف في صلاة التراويح (مطبوع) .

٧ــ رسالة تيسير البيان عن إعجاز القرآن (مطبوع) .وهو هذا الكتاب.

٨ــ حديث الآحاد الصحيح بين العلم القاطع والظن الــراجح (بحث منشور في مجلة الأحمدية) .

٩ ــ القرآن إعجاز تشريعي متجدد (مطبوع)، وقد أخــذ منــه بعض المواضيع لهذا الكتاب.

١٠- التوسل في سنة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

كلمة المؤلف أثناء زيارته لدار عالم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الإخوة الأكارم القائمين على مكتبة عالم القرآن الكريم حفظكم الله

أشكركم على إتاحة هذه الفرصة بزيارة مكتبتكم الرائعة حيث اطلعت على جهودكم في استخدام التنظيمات الحديثة لخدمة تراث القرآن الكريم

أرجو الله تعالى أن يجعل جهودكم مثمرة متجددة الإثمار وهدفها خدمة القرآن الكريم.

ودمتم في حفظ الله ورعايته وتسديده

٢٠٠٥/٨/١٠

مقدمة المؤلف

لله الحمدُ وبه المستعانُ، وعلى حبيبه سيِّدنا محمدٍ وآله وصحبه أفضلُ الصّلاة والسّلام. وبعدُ:

فقد تردَّدت بين الناس كلمةٌ تقول: (إنّ إعجازَ القرآن أمرٌ لا يُدركُه إلا العلماء المتخصصون). وَ هيَ كلمةٌ غيرُ صحيحة.

لأن منْ وجوه إعجازِ القرآن ما يمكنُ أنْ يُدركَه كلُّ إنسان، وإنْ كانَ منها ما لا يدركُهُ إلا العلماءُ، ومنها ما لا يدركُهُ إلا أكابرُ العلماء. وَالوجهُ الذي يُدركُه كُلُّ النّاسِ مذكورٌ في القرآن الكريم نفسه في قول الله تَعالى:

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[1]. أيْ: لو كانَ منْ قولِ البَشرِ وصنْعةِ المخلُوقاتِ لكانَ بعضُهُ

(١) سورة النساء الآية ٨٢

متناقضاً، وبعضُهُ قاصراً، وبعضُهُ خطأً، وبعضُهُ ضعيفاً كما هُوَ مُشاهَدٌ في أعمالِ الخَلْقِ إذا لَمْ تُسدِّدها عنايةُ الخالقِ.

وأيُّ شيءٍ وُجدَ منْ ذلكَ كانَ فيه نفيُ الإعجازِ عنهُ ، مهما وُجدَ فيه بعدَ ذلك من صوابٍ، لأنَّ الله تعالى لا يمكنُ أنْ يَصْدُرَ منهُ أيُّ خطأ، فإذا خلا كتابٌ منَ الخطأ دلَّ ذلك على أنه من عند الله سُبحانه دلالةً قاطعةً، إذْ لا يُمكنُ أن يخلوَ غيرُ الله سُبحانَهُ منْ خطأ، إلا أنْ يعصمَهُ الله سُبحانَهُ .

والمرادُ بالخطأ الذي نفاهُ القرآنُ الخطأُ الحقيقيُّ، لا الأمرُ الّذي يَختلفُ العُقلاءُ فيه، فيراهُ بعضُهم خطأً، ويراهُ الآخرُ صواباً، كلٌّ حسْبَ فهمه وعلمه، ولو صحَّ أنْ يكونَ هذا النوعُ منَ المعلومات حجةً لإثبات الخطأ في الكُتُب لكانَ الأعداءُ يتخذونَ الشُّبُهاتِ والحِيَلَ دليلاً على وجودِ الخطأ، ويرفُضونَ كلَّ دليلٍ صحيحٍ بِناءً على هذه الطريقة.

وبيانُ أنَّ انتفاءَ الخَطأ معجزةٌ يحتاجُ إلى ضَربِ مثالٍ من واقعِ تأليفِ الكتبِ في العلومِ كلِّها.

فما منْ كتابٍ يكتُبهُ صاحبُهُ إلا ويكتشفُ فيه غيرُهُ خطأً، بلْ كثيراً ما يكتشفُ هوَ نفسُهُ خطأً في كتابِه حينَ يراجعُه، ولا سيّما إذا مَضتْ عَليه مُدةٌ ينضَجُ فيها علمُه، وتتجدّدُ نَظراتُه في العلْمِ.

وَلو كان في القرآنِ أيُّ خطأٍ حقيقي لاكتشفَهُ الناسُ لا سيّما أولئكَ الخُصومُ، الّذينَ يفترُون عليه، إذ لوْ وَجدوا أيَّ خطأ لاستغنَوْا عنِ الافتراء. وَالمثالُ الذي يُوضحُ أنّ الإعجازَ القُرآنيّ يُدركُهُ كلُّ مَنْ تَدَبّرَه: هوَ أن نَفترضَ افتراضاً وُجودَ كتابٍ في اختصاصٍ واحدٍ منْ علمٍ واحدٍ، ولْنفترضْهُ طِبَّ العُيُون - وَهوَ علمٌ تجْريبيٌّ - وَلنفرض أنهُ قد اجتمعَ على تأليفه وتنقيحه جميعُ أهلِ الاختصاصِ في العالَمِ ممّنْ حازَ لَقبَ "أستاذ" ((بروفيسور))، ونتساءَل هلْ يُمكنُ أنْ يكونَ فيه خطأٌ؟

إنّ أهلَ العلمِ أنفسَهم يقولونَ: نعم، لا يُستَبْعَدُ، وَمَعَ ذلك فسنفترضُ أنهمْ قالوا: يُستبعدُ كُلَّ الاستبْعادِ أنْ يُوجدَ فيه أيُّ

خطأ، وَلَوْ وُجدَ لكانَ قليلاً جداً، لا يتجاوزُ نسبةَ واحدٍ مِنْ ألفٍ، بلْ لا يتجاوزُ نسبةَ واحدٍ منْ عَشرةِ آلافٍ.

أثر مرور الزمن على معلومات الكتب

تُرى لَوْ أعدْنا عَليْهِمُ السُّؤالَ بعدَ عشرِ سَنواتٍ معَ مُلاحظةِ تطوُّرِ العلمِ، لا سيّما في زمانِنا الذي تطوّرَ فيهِ العلمُ تطوُّراً يُغيِّرُ كثيراً منْ نتائجِ البَحْثِ العلميِّ التي كانتْ مُعتمدةً هلْ يَستبعدُونَ الخطأ؟. أوْ هلْ تبقى نِسبةُ وُجودِ الخطأِ واحداً منْ عَشرَةِ آلافٍ؟ الإنصافُ يقولُ: لا.

فإذا طرَحْنا السُّؤالَ عليهمْ بَعْدَ مائةِ سَنةٍ فسنراهم يقولونَ: إنّ وُجودَ الخطأ يُصبحُ أمْراً مُحتّماً لا ريبَ فيه.

إذن، مَاذا يقُولونَ لوْ طَرَحْنا السُّؤالَ عليهمْ بعدَ ألفِ سَنةٍ؟

وَقدْ طَرَحْتُ هذا السُّؤالَ ذاتَ مَرّةٍ على طبيبٍ فقالَ: إنّ تطوُّرَ المعلوماتِ الطبيّةِ في ألفِ عامٍ لا بُدَّ أنْ يَكشفَ أنّ أكثرَ هذا الكتابِ صارَ أخطاءً.

أثر تعدد الموضوعات والعلوم على زيادة احتمال الخطأ في الكتاب

لقد افترضنا أنّ الكتابَ في علمٍ واحدٍ هوَ الطِّبُّ ، وَاختصاصٍ واحدٍ منهُ هوَ طبُّ العُيُون، وهذا يقلّلُ احتمالَ وُقوعِ الخطأ.

أفلا تَزيدُ نِسْبَةُ وُجودِ الخطأ إذا افترضْنا إضافةَ الاختصاصاتِ التي لها صلةٌ بطبِّ العُيُون ؟

كأمراضِ المخِّ وَالأعصابِ وأمراضِ الدّم، وَكالجراحَةِ وَالصّحّةِ العامّة، وَالغذاءِ وَأمثالِها؟

نقولُ هذا معَ بقاءِ المُستوى العلمـيِّ في الأطبَّاءِ الـذينَ شاركوا في التّأليفِ وَالمُراجعةِ وَالتّصحيحِ، وَمعَ بقـاءِ العَـدَدِ الأكبرِ منهُم؟

إنَّ نسبَةَ الخطأ في هذه الحالة سوفَ تَزيدُ وَلوْ لمْ تكنْ كبيرةً.

لكنّها ستكونُ كبيرةً بلا شكٍّ، إذا نحنُ افترضْنا أنّ الكتـابَ يشتملُ على كُلِّ فُروعِ الطبِّ الجسميِّ منها وَالنّفسيِّ .

أمّا إذا أضفْنا إلى الطّبِّ في هذا الكتابِ عُلوماً أخرى تُكمّلُـهُ وتُساعدُهُ، كالصّيْدلة وَالكيمياءِ وَالتحليلِ المخبَريِّ، وَطبـائعِ أجسامِ الحيَوانِ ((البيولوجيا))، وَعلـمِ النبـاتِ، وَعُلُـومِ الأجهزةِ الطبيَّةِ وَصناعتِها كـأدواتِ الجراحَـةِ وَالتـصويرِ وَالتحليلِ، فنسبةُ الخطأ بلا شكٍّ تكونُ أكْبَرَ عَـدَداً كُلّمـا تعدّدتِ الاختصاصاتُ وَالعُلُومُ، وَتكونُ آكَدَ تحقُّقاً، لا سـيَّما بعدَ مُرورِ ألفِ سنةٍ كمَا تقدَّم .

أثر انفراد المؤلف على احتمال الخطأ في الكتاب

لقد لاحَظْنا أولاً أثَرَ تطاوُلِ الزّمنِ على الكتاب ، ثُمَّ لاحَظْنـا مَعَهُ أثَرَ زيادةِ عددِ الاختصاصاتِ وَالعلومِ الّتي اشتملَ عليهَـا الكتابُ، فأدّى الأمرانِ إلى زيادةِ احتمالِ الخَطَأ وَزيادةِ نسْبتِه وَتأكُّده .

فَلْنُلاحظِ الآنَ أثرَ عددِ المُؤلفينَ الّذينَ تعاونوا على تأليفِه، فَقَدِ افتَرَضْنا أنهم جميعُ المختصّينَ في العالَم، تُرى هلْ تزيـدُ نـسبةُ احتمالِ الخطأ إذا كانوا همْ نصفَ المختصّـينَ لا جميعَهـم؟.

لا شكَّ أنَّ هذا النقصَ الكبيرَ في التعاونِ سيُؤدِّي إلى زيادةِ النِّسبةِ في الأخطاء.

فإذا افترضْنا أنَّ التّعاونَ كانَ بينَ خمسةٍ منهم فقطْ صارَتْ النِّسبةُ كبيرةً بلا شكٍّ.

فإذا افترضْنا أنَّ المؤلِّفَ واحدٌ لمْ يُساعدْهُ أحدٌ كانتْ نسبةُ الخطأ أكبرَ وعددُها أكثرَ وتحقُّقُها آكدَ. لا سيَّما إذا تذكَّرْنا مُرورَ الزَّمنِ الطَّويلِ، معَ كثْرةِ الاختصاصاتِ الَّتي بُحثَتْ في الكتابِ، ومَعَ عدمِ التعاونِ بحَيْثُ يكونُ المؤلِّفُ واحداً، لكنَّهُ في أعلى دَرجاتِ العلْمِ .

أثر مستوى التحصيل العلمي عند المؤلف على احتمال الخطأ في الكتاب

أمَّا ما هوَ أهمُّ منْ ذلكَ كُلِّهِ فهُوَ مُلاحظةُ المستوى العلميِّ للمؤلِّفِ.

فماذا يكون حالُ الكتابِ ونسبةِ الخطأِ فيهِ إذا مرَّ عليهِ ألْفُ عامٍ، معَ تعدُّدِ الاختصاصاتِ والعلومِ، ومَعَ عَدَمِ وجودِ

التعاونِ، ومَعَ المستوى العلميِّ الأقلِّ.

كما لوِ افترضْنا أنَّ المؤلِّفَ كانَ طبيباً مُختصاً، لكنَّهُ ليسَ في رُتبةِ الأستاذِ ((البروفيسور))، لا شكَّ أنَّ نسبةَ الخطأ تزيدُ حينئذٍ؛ لأنَّ المستوى العلميَّ للمؤلِّفِ هوَ أهمُّ عناصرِ التأليفِ، يرتقي الكتابُ برُقيِّهِ، ويضعُفُ بقلَّتِه.

وهذا يَظهرُ أكثرَ إذا افترضْنا المؤلِّفَ طبيباً عاماً غيرَ مُختصٍّ، وتتعاظمُ الأخطاءُ إذا افترضناه مُمرِّضاً، وتتفاحشُ الأخطاءُ ويتكاملُ ظهورُها إذا افترضْناه حاملَ شهادةِ المدارسِ الابتدائية.

فماذا يكونُ حالُ الكتابِ إذا كانَ صاحبُهُ أُميّاً أملى الكتابَ على بعضِ أصحابِهِ إملاءً؟!!.

ماذا يكونُ في هذا الكتابِ منْ صَوابٍ عندَ تأليفهِ بغضِّ النَّظرِ عنْ تطوُّرِ العُلومِ عبرَ الأزمانِ الطَّويلةِ ؟ !! .

هذا المثالُ يُوضحُ لنا حالةَ القُرآنِ معَ مَنْ جاءَ بهِ يَعرِضُهُ على النّاسِ ويدعوهم إلى الإيمانِ بهِ .

إنهُ النبيُّ الأُمّيُّ الكاملُ الأمّية، فَقَدْ كانَ هوَ أُميّاً، في بَلَد أميّ في أمّة أمّية، وَجاءَ بهذا القرآن الّذي يَشتملُ على عُلُومٍ مُتعدّدة:

علمِ العَقيدة الإسلاميّة بتفاصيلها، وعلى علم مُقارنة العقائدِ الدّينيّة مقرونةً بأدلّتها، وَمُقارعة المخالفينَ بالحُجّة وَالبُرْهان.

وَعلى علم أساسيّات التّشريع بكُلّ جَوانبه: العبادات مَعَ بيان مقاصدها وَآثارها، وَالقوانين: قانون الأُسْرة ((الأحوال الشّخصيّة))، وَالقانون الاقتصاديّ، وَالجنائيّ، وَالعسكريّ، وَالدّوليّ، وَقانون المُرافعات منْ شهادة وَاعتراف وَاستدلال وَغيرِ ذلك. وَاشتملَ على دُستورِ الأخلاقِ الإنسانية وَأهمّ قضاياها، وَعلى مُجْمَلِ تاريخ الوجود الإنسانيّ في أهَمّ مَراحله، وَمُجْمَلِ تاريخ الأديان وَما طرأ عليها منْ تغيير.

وَاشتمل على قواعدَ مهمّة جدّاً منْ علم النفس، وَعلم الاجتماع، وَقُطوف منَ الطّبّ وَالطّبيعة، وَغيرِ ذلكَ.

يَسُوقُ كُلّ هذا بطَريقَة تربويّة تُعَمّقُ أثَرَهُ في النُّفُوس،

وَبأسلوب أدَبيّ رَفيعٍ، هُوَ وَحْدَهُ مُعْجزَةٌ مُستقلّةٌ. وَهوَ مَعَ ذلكَ كُلّه يَقولُ:

إنّ هذا الكتابَ لا يُوجَدُ فيه أيُّ خطأ مُوثّقٍ بالدّليلِ الصّحيحِ، وَهُوَ يتخذُ منْ ذلكَ دليلاً على أنهُ منْ عند الله فيقولُ: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (١).

وَهُوَ يَتحدّى المتشكّكينَ بأنّ الله الّذي أنزلَهُ يقولُ :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢).

وَهذا التّحدّي ليسَ مقصوراً على قومه أوْ جيْله أوْ عَصْره ، بلْ هُوَ يَقولُ : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ

(١) سورة النساء الآية ٨٢

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٣).

هذا القُرآنِ لا يأتونَ بمثلهِ ولوْ كانَ بعضُهمْ لبعضٍ ظهيراً ﴾ (١) .

هَلْ يُمكنُ أنْ يَعجزَ البَشرُ كُلُّهم مُجتمعينَ ومعهمُ الجنُّ أيضاً عَنْ كشفِ خطأٍ واحدٍ في كتابٍ تعدَّدتْ عُلومُهُ، جاءَ بهِ إنسانٌ واحدٌ أُمِّيٌّ، منْ بَلَدٍ أُمِّيٍّ، ومِنْ أُمّةٍ أُمِّيّةٍ، وقدْ مَضى عَلى ظهورِ الكتابِ ألفٌ وأربعمائة عامٍ ؟

هَلْ يُمكنُ أنْ يَعجزَ البَشرُ هذا العَجْزَ لَوْ كانَ الكتابُ منْ تأليفِ هذا الإنسانِ ؟

البَداهَةُ تقولُ: لا يمكنُ، والعلمُ العميقُ يقولُ: لا يمكنُ .

فهُوَ إذَنْ مُعجزٌ لا يَقدرُ عَليْهِ إلاّ اللهُ، ولا يأتي بهِ إلاّ الصّادقُ الأمينُ وَحْياً منْ عندِ اللهِ. هذا الوَجْهُ منْ وُجُوهِ إعجازِ القُرآنِ عامٌّ في كُلِّ جانبٍ منْ جَوانبِ القُرآنِ .

وَكُلُّ علْمٍ منَ العُلومِ الّتي تَناوَلها، يَستطيعُ أنْ يتفحَّصَهُ كُلُّ صاحبِ اختصاصٍ، سَواءٌ كانَ أعلمَ العُلماءِ، أوْ أبسطَ

---

(١) سورة الإسراء، الآية (٨٨).

البُسطاءِ في اختصاصهِ .

كَما يستطيعُ ذلكَ كُلُّ مُثقفٍ وكُلُّ ذي عقلٍ سليمٍ، وَهُوَ يُغني الناظرَ عَنِ البَحْثِ في وُجوهِ الإعجازِ الأُخرى، الّتي تحتاجُ إلى استعدادٍ علْميٍّ خاصٍّ، ولا يخلو وَجهٌ منْ تلكَ الوُجُوهِ عَنْ مقدارٍ يمكنُ أنْ يُدرِكَهُ الناظرُ بشيْءٍ يسيرٍ منَ التأمُّلِ الصّحيحِ.

وجوه أخرى من إعجاز القرآن الكريم

وَسأعْرِضُ هُنا بإيجازٍ شديدٍ إلى طَرَفٍ منْ وُجوهٍ أربعةٍ منَ الإعجازِ هي :

- الإعجازُ التّشريعيُّ.
- والإعجازُ الأدبيُّ.
- والإعجازُ بكَشفِ غَيبِ المُستقبلِ، الّذي لا يُمكنُ تقديرُهُ حَسْبَ المُقدّماتِ الظّاهرةِ الموجودةِ في الحاضرِ.
- والإعجازُ في مُوافقةِ الكشوفِ العلْميّةِ الطّبيةِ للقرآنِ .

الإعجاز التشريعي

وَالإعجازُ التَّشريعيُّ يَظْهرُ في الأُمُورِ الثَّلاثَة التَّاليَة:

١. الاعترافُ العلميُّ العالَميُّ به.

٢. وَالاعترافُ التشريعيُّ العالَميُّ به.

٣. وَعَدَمُ احتياجه إلى التَّعْديلِ خلافاً لِكُلِّ قَوَانين الدُّنيا.

(١) أمّا الاعترافُ العلْميُّ العَالَمـيُّ به :

فَيظهرُ في تلكَ الدِّراسات الجامعيَّة مِـنْ رسـائلِ الماجِـسْتيرْ وَالدِّكتُوراهْ في الشَّريعَة الإسـلاميَّة، لا في جامعـات العَالَمِ الإسلاميِّ فَقَطْ، بَلْ في العَالَمِ الغَرْبيِّ الّذي يَتبنّى عداءَ العَـالَمِ الإسلاميِّ وَالدِّينِ الإسلاميِّ. وَكَذلكَ الأَمرُ في كثيرٍ مِنْ بُلدانِ العَالَمِ غيرِ الإسلاميِّ في الشّرق .

وَهذا اعترافٌ ضِمْنيٌّ مِنَ الجميعِ حتى الخـصوم بـأنَّ هـذا التَّشريعَ يستحقُّ أَنْ يُدْرَسَ دراسـةً عِلميـةً عَلَـى أعلـى

المُستوَيات. فَهَلْ يمكنُ أَنْ يأتيَ أحَدٌ بِكتاب على هذا المُستوَى وَهُوَ أُمّيٌّ في بَلَد أُمّيٍّ في أمَّة أُمّيَّة ؟!!.

(٢) وَأمّا الاعترافُ التَّشريعيُّ العَالَميُّ به :

فَيظهرُ في قَرارات المُؤتَمرات القانونيَّة العَالَميَّة:

أ ــ مُؤتَمرُ القانون المقارَن في مَدينة لاهَاي. في جُمَادَى (١٣٥٦ هـــ)، أغسطس (١٩٣٧م). حيثُ اتَّخذَ القرارُ التّالي: ((اعتبارُ الشَّريعَة الإسلاميَّة مَصْدَراً مِنْ مَصادِرِ التشريع العَامِّ))[١].

ب ــ مُؤتَمرُ المُحامينَ الدَّوليُّ في مَدينـة لاهَـاي (١٥- ٢٢ اغسطس ١٩٤٨ م) حيثُ اتَّخذَ القرارُ التّالي:

((نَظراً لمَا في التّشريع الإسْلاميِّ مِنْ مُرُونَة، وَمَا لَهُ مِنْ شَأن هامٍّ يجبُ على جمعية المُحامينَ الدَّولية أنْ تتبَنّى الدِّراسةَ المُقارَنةَ لهذا التَّشريع وَتُشجّعَ عَلَيها))[٢].

وَالتَّشريعُ الإسلاميُّ أساساتُهُ كُلُّها في القرآن.

(١) المدخل الفقهي العام للأستاذ : مصطفى الزرقا.(٣٠٧/١)، ط دار القلم.

(٢) المرجع السابق

ج ـ بَلْ عَقَدَ الْمَجْمَعُ الدَّوْلِيُّ لِلْحُقوقِ المُقارَنةِ مُؤتمراً في كُلِّيَّةِ الحقوقِ مِنْ جامعةِ باريس (٢/٧/١٩٥١)، باسم: ((أُسبوعُ الفقهِ الإسلاميِّ)).

كانَ مِنْ جُملةِ قَراراتِه المتعلِّقة بالشَّريعَةِ الإسلاميَّةِ ما يَلي:

((إنَّ مبادئَ الفقهِ الإسلاميِّ لها قيمةٌ حُقوقيَّةٌ تشريعيَّةٌ لا يُمارى فيها.

وَيرغبُ المؤتمرونَ أنْ يَظلَّ أسبوعُ الفقهِ الإسلاميِّ يُتابعُ أعمالَهُ سَنةً فَسنةً))[1].

أيعقلُ أنْ يُؤلِّفَ التَّشريعَ الإسلاميَّ - الَّذي يُقِرُّ خُصومُهُ هذا الإقرارَ - إنسانٌ مهمَا عَظُمَ علمُهُ، فكيفَ الأُمِّيُّ في بَلَدِ الأُمِّيَّةِ وَالأُمَّةِ الأُمِّيَّةِ ؟!!.

أَمْ هُوَ تنزيلُ العليمِ الحكيمِ تباركَ وتعالى؟!!.

(١) المدخل الفقهي العام (١/٢٣ ـ ٢٤).

(٣) وَأمَّا عَدمُ احتياجِه إلى التَّعديلِ خلافاً لكُلِّ قوانينِ الدُّنيا :

فَهذا بُرهانٌ منَ الإعجازِ يستطيعُ كُلُّ مثقَّفٍ مهمَا قَلَّ مُستواهُ الثقافيُّ أنْ يتأكَّدَ منهُ فكلُّ قوانينِ الدُّنيا تَظلُّ دائماً بحاجةٍ إلى التعديلِ حَسْبَ تَغيُّرِ الظُّروفِ وَتَغيُّرِ الشُّعوبِ وَتَغيُّرِ الأوطانِ.

وَأقربُ مثالٍ على ذلكَ هُوَ القانونُ الرُّومانيُّ، الَّذي ظَلَّ الرُّومانُ يُنقِّحُونَهُ مئاتِ السِّنينَ، ثُمَّ أخذَ منهُ العَالَمُ الغربيُّ قوانينَهُ، وَهيَ عُرضَةٌ طولَ تاريخها للتَّعديلِ ولا تزالُ، حتَّى صارَ الفارقُ بينَها وَبينَ الأصلِ كبيراً، وَصارَ الفرقُ بينَ بعضِها وبعضٍ كبيراً جداً.

وَهذا التَّعديلُ قاعدةٌ تشريعيَّةٌ مُعترَفٌ بها عالميّاً، لكنَّ التشريعَ الإسلاميَّ الَّذي وضعَ القرآنُ أساسيَّاته ظَلَّ سائداً في المجتمعاتِ الإسلاميَّةِ ثلاثةَ عَشَرَ قرناً دونَ حاجةٍ إلى أيِّ تعديلٍ، إلاَّ إذا كانَ ضِمنَ قواعدِه هُوَ، وَأحكامه هُوَ، وَحينئذٍ يكونُ التَّعديلُ لِمَا أدركَهُ العُلماءُ منهُ، لا تعديلاً لهُ، أمَّا هُوَ

فاستغنى عَنِ التَّعديلِ، رَغمَ تَغيُّرِ الأَزمانِ وَتَغيُّرِ الأوطانِ وَتَغيُّرِ الشُّعُوبِ، وَظَلَّ يَفيضُ أَمْناً وَسلاماً على المسلمينَ إلاّ حينَ يُخالِفُهُ الحُكّامُ وَالقُضاةُ، وَلا يزالُ أَثَرُ ذلكَ الأَمنِ موجُوداً في البلادِ الإسلاميَّةِ بعدَ زوالِ حُكمِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ منها، يختلفُ حَظُّها منَ الأَمنِ حَسْبَ قُربِ نظامِها منَ الشَّريعَةِ الإسلاميَّةِ، وَحَسْبَ قُربِ عاداتِها منها، أَوْ حَسْبَ قُربِ شَعبِها منْ مَفاهيمِ الإسلامِ وَأَخلاقِهِ وَسُلُوكيَّاتِهِ.

تُرَى هلْ يُعْقَلُ أَنْ تكونَ حاجةُ كُلِّ قوانينِ الدُّنيا إلى التَّعديلِ مُستمرةً رَغمَ اعتمادِها على الدِّراساتِ القانونيَّةِ الجَامعيَّةِ، وَعلى أَنواعٍ شتَّى منْ هذهِ الدِّراساتِ، وَعلى مُشاوَراتٍ كثيرةٍ لأَعضاءِ اللِّجانِ المتخصِّصَةِ في المجالسِ التَّشريعيَّةِ، بَينما يستغني التَّشريعُ الإسلاميُّ عَنِ التَّعديلِ إلاّ ضمنَ قواعدِهِ وَأَحكامِهِ وَثوابتِهِ، مَعَ أنهُ جاءَ بهِ رجلٌ أُمِّيٌّ في بلدٍ أُمِّيٍّ في أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ، أَيعقلُ ذلكَ إلاّ إذا كانَ الّذي جاءَ بهِ رسولاً مُؤَيَّداً منْ عندِ اللهِ تَعالى فصلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ وجزاهُ أفضلَ الجزاءِ.

الإعجاز الأدبي

إنَّ الحديثَ عنِ الإعجازِ الأَدبيِّ في القُرآنِ: وَهُوَ أَنَّهُ ارتقى في البلاغةِ حتَّى صارَ في مُستوىً يعجزُ عنهُ البشرُ أفراداً وَجماعاتٍ، ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (١)

هذا الحديثُ يطولُ كثيراً، وَهُوَ أحوجُ أنواعِ الإعجازِ إلى الاستعدادِ في التَّحصيلِ الدِّراسيِّ وَفي التَّذَوُّقِ، وَتوضيحُهُ أصعبُ ما يَكونُ، لا سيَّما في وقتنا الّذي تضاءَلَتْ فيهِ إمكانيَّةُ إدراكِهِ حيثُ غَلَبَ على الدّارسينَ ضعفُ الاستعدادِ، لقلَّةِ التَّحصيلِ الدِّراسيِّ وَضعفِ التَّذَوُّقِ لقلَّةِ التمرسِ بالأساليبِ الأدبيَّةِ الرَّاقيةِ.

لكنَّ هناكَ مقداراً يمكنُ بيانُهُ وَهُوَ الإيجازُ العظيمُ في هذا

(١) سورة الإسراء، الآية (٨٨).

الكتاب، فَرَغْمَ كُلّ العُلُومِ الّتي تناولها مّما سبقَ ذكرُهُ في هذه الرّسالة الصّغيرة، هوَ كتابٌ لا يتجاوزُ حجمُهُ حجمَ كتاب صغيرٍ منْ مقياسِ الصّفَحات المعتاد (٢٥ × ١٨ سم)، وَلا تتجاوزُ صفَحاتُهُ (١٥٠) صفحةً ، لوْ طُبِعَ بالحرفِ المتوسّط كما في الكُتُب المتداولة.

وَهُوَ مَعَ ذلكَ فيه تكرارٌ غيرُ قليلٍ في القَصَصِ وَالأخبارِ كقصّة موسى عليه السلام، وَتكرارٌ في تناوُلِ الموضوعات كموضوع التّوحيدِ وَالشّرك .

وَالإيجازُ منْ أهمّ عناصرِ البلاغة في النّصوص الأدبيّة معَ المحافَظَة على الوُضُوحِ كما في القرآنِ الكريم، حتّى قالَ بعضُ علماء البلاغة: ((البَلاغَةُ هيَ الإيجازُ))، تُرى أيمكنُ وجودُ هذا المقدارِ منَ الإيجازِ في استطاعة البَشرِ ؟!.

فإذا نحنُ أرَدْنا دليلاً منْ مواقفِ أهلِ الاختصاصِ في الأدَبِ وَالبَلاغَة فيكفي أنْ نَذكرَ أنّ هذا القرآنَ أولُ ما تحدّى البشرَ تحدّاهُمْ بِبلاغتِه حتّى قال:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[1].

وَالافتراء ليسَ لهُ مضمونٌ حقيقيٌّ، فالتّحدي أسلوبيٌّ حتماً، ثُمّ تنَزّلَ معَهُمْ في التّحدّي فَقال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[2].

مَعَ أنّ بعضَ السُّوَرِ فيه كلماتُها لا تتجاوزُ بضعَ عشْرَةَ كَلمة.

وَبَعْدَ أربَعَةَ عَشرَ قَرناً لَمْ يُقَدّمْ خُصومُ القرآنِ أيّ نصٍّ أدبيٍّ يُعارضُهُ، إلاّ تلكَ المنقولةَ عَنْ مُسيلمَةَ وَأشباهِه مّما هُوَ سُخريةٌ في نَظَرِ الأدَباء البُلَغاء. تُرى ما الّذي مَنَعَهُمْ منَ المعارَضةِ لَوْ كانَ ذلكَ في استطاعَتِهم ؟

وَما الّذي دعا مُفاوِضَ النّبيّ ﷺ منْ قُرَيشٍ ، وَهُوَ الوليدُ بنُ المغيرة إلى أنْ يقولَ لهمْ : ((وَاللهِ ما منْكُمْ رجلٌ أعرَفَ بالشّعرِ منّي، وَلا أعلمَ برَجَزِه وَلا بقصيدِه وَلا بأشعارِ الجنّ، وَاللهِ ما يُشبهُ الّذي يقولُهُ شيئاً منْ هذا، وَوَاللهِ إنّ لقوله

---

(١) سورة هود، الآية (١٣).

(٢) سورة البقرة ، الآية (٢٣).

لحلاوةً، وإنّ عليه لطلاوةً، وإنّهُ لمثمرٌ أعلاهُ مُغدقٌ أسفلُهُ، وإنهُ لَيعلُو وَما يُعلَى وَإنهُ لَيحطِّمُ ما تحتَهُ)).

أيمكنُ أنْ يكونَ أحدٌ منهمْ قادراً على أنْ يأتيَ بشيءٍ منْ مثلهِ ويتوقّفَ عنْهُ رَغمَ التّحدّي الشّديدِ وَالتّوبيخِ وَالتّنديدِ ؟!.

إنّ مجرّدَ الفضُولِ الأدبيِّ يَدعو الإنسانَ الّذي يَجدُ في نفسهِ القُدرةَ إلى أنْ يستجيبَ، فكيفَ إذا كانَ يَجدُ القُدرَةَ وتكونُ نتيجةُ المعارَضَةِ كسرَ هذا الخصْمِ أي سيّدنا محمداً صلّى اللهُ عليه وسلّمَ الّذي حارَبوهُ وَحارَبَهُمْ بِكُلّ سلاحٍ؟.

ولقدْ عارَضوا شُعراءَهُ حينَ اشتعلَ الهجاءُ بينَهم ، وَلكنَّهم لَمْ يُعارِضوا الكتابَ الذي جاءَ بهِ قطّ، أيمكنُ أنْ يكونَ لذلكَ سببٌ سوى أنهم عَنِ المعارَضَةِ عاجزونَ؟ تحقيقاً لقولِ اللهِ تعالى وَهُوَ يكشفُ لِلْخلقِ حُجُبَ المستقبلِ في هذهِ القضيةِ:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١).

وَلا سبيلَ إلى اتّقائها إلاّ الإيمانُ بهِ ..

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٤).

الإعجاز بكشف المستقبل

وَمِنْ أَدِلَّةِ الإعجازِ بابُ الحديثِ عَنِ الغَيْبِ: وَلا سِيَّما المستقبلِ الَّذي لا يوجدُ بينَ يَدَيْ مَنْ يخبرُ عنهُ شيءٌ مِنْ دلائلِه، وَلْنَأخُذْ لِذلكَ مَثَلاً قولَ اللهِ تَعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١).

فَسَتَرى عندَ التَّأمُّلِ أمراً عجيباً، وَأَوَّلُ ما يَظْهرُ مِنْ ذلكَ تميُّزُهُ على الكُتُبِ السَّابقَةِ، فَمَثلاً التَّوراةُ وَالإنجيلُ كتابانِ لا زالَتْ شُعوبُهما قائمةً عليهما مُتَعَصِّبَةً لَهُما أَشَدَّ التَّعَصُّبِ.

وَمَعَ ذلكَ فإنَّ تاريخَ الكتابَيْنِ حَسَبَ مَا يقولُ أصحابُهما يُصَرِّحُ بأنهما قدْ تعرَّضا لِضَياعٍ كثيرٍ وَتَدَخُّلٍ مِنَ النَّاسِ كثيرٍ.

(١) سورة الحجر، الآية(٩).

فَلْنَدَعْ هذا وَلْنَنْظُرْ كيفَ يَسَّرَ اللهُ أسبابَ الحِفْظِ لهذا الكتابِ تيسيراً لا يُعرَفُ لَهُ نَظيرٌ.

(١)

توثيقُ الكُتُبِ كانَ أمراً بَعيدَ الحُصولِ في الأُمَّةِ الأُمِّيَّةِ، نادرَ الأَدَواتِ مِنْ وَرَقٍ وَأقلامٍ ولكنَّ القرآنَ كُتِبَ على عهدِ النَّبيِّ ﷺ حَسَبَ مَا تَيَسَّرَ في نُسخَةٍ لَهُ خاصَّةٍ، وَفي نُسَخٍ يكتُبُها لنفسِهِ كُلُّ قارئٍ في الجُلُودِ وَالألواحِ الخَشَبيَّةِ أوِ الحَجَرِيَّةِ.

(٢)

حَفِظُوهُ في صُدُورِهِمْ حِفظاً حرفيّاً فَكَثُرَ حُفّاظُهُ حتى قُتِلَ منهم في معركةِ بئرِ مَعُونَةَ سبعونَ حافظاً فَكَمْ كانَ الحُفّاظُ الآخَرُونَ.

(٣)

أُعيدَتْ كتابَتُهُ في خلافةِ الصِّدِّيقِ حينَ كَثُرَ القَتْلى مِنْ حُفّاظِه، مَعَ المقابَلَةِ بينَ النُّسخَةِ الأُولى النَّبَويَّةِ وَحِفْظِ الحُفّاظِ وَمِنهمْ

الكاتبُ وَهوَ زَيدُ بنُ ثابت رضي الله عنه.

وَهذه هيَ نشأةُ علْمِ مُقابَلَةِ المخطوطاتِ وَتوثيقِها، وَهُوَ علْمٌ لَمْ يكُنْ معروفاً لا سيَّما عندَ العَرَبِ، وَفي مكَّةَ وَالمدينةِ بالذَّاتِ، لَقَدْ نَشأَ هذا العلمُ لأجلِ القُرآنِ خاصَّةً ثُمَّ انْتقَلَ إلى غيرِه .

(٤)

ولَمَّا نَقَلَ النَّاسُ بعضُهم منْ بعضٍ عَنْ غيرِ نسخةِ الأصلِ وَعلى مناهجَ إملائيةٍ غيرِ مُوحَّدة وقعَ اختلافٌ في القراءَةِ ، فَأُعيدَتْ الكتابةُ مرَّةً ثالثةً بمَنهجٍ إملائيٍّ مُوحَّدٍ في عهدِ عُثمانَ رضي الله عنه .

ثُمَّ أُحرِقَت النُّسَخُ الأُخرى، وَأُلزِمَ النَّاسُ جميعاً ألاَّ ينقلُوا إلاَّ منْ هذه المصاحفِ الَّتي تمَّتْ فيها المقابَلَةُ على الوجهِ السَّابِقِ، لِكَيْ لا يَتجدَّدَ الاختلافُ.

(٥)

ظلَّ القُرآنُ يُنقلُ بالسَّنَدِ المُتَّصلِ حتَّى يومِنَا هذا في بدايةِ العَقْدِ الثَّالثِ منَ القرْنِ الخامسِ عشرَ الهجْريِّ، معَ الاعتمادِ على

الكتابَةِ وَالسَّماعِ معاً، وَشُيُوخُ الإسنادِ معروفونَ يقصدُهُمْ طَلَبَةُ العلْمِ لذلكَ.

وَنَشأَتْ عُلومٌ مُتعدِّدةٌ كمَّلَ اللهُ تعالى بها هذا الحفْظَ . وَهذا الضَّبطُ منْ حيثُ النُّطقُ وَالكتابةُ.

(١)

نَشأَ علمُ رسمِ القرآنِ، أيْ طريقةِ كتابتِه، حيثُ حافظَتِ الأُمَّةُ على الطَّريقةِ الَّتي كُتبَتْ بها المصاحفُ أيامَ عثمانَ رضي الله عنه، حتَّى لا يطرأَ عليها أيُّ تغييرٍ. رَغمَ تطوُّرِ علمِ كتابةِ اللُّغةِ العَربيَّةِ ((الإملاء)) تطوُّراً كثيراً. وَهذا شيءٌ لَمْ يُعرَفْ عَنْ أيِّ كتابٍ لا عربيٍّ وَلا غيرِه قبلَ ذلكَ.

(٢)

نشأ علمُ القراءات، وهيَ طريقةُ ضبطِ الكلمات ونَقْطها على وجوهٍ مُتعدِّدة، كُلُّها أُخذتْ منْ فَمِ النَّبيِّ ﷺ.

وهذه القراءاتُ أيضاً رَغمَ أنّها مكتوبةٌ فهيَ تُروى بالسَّماعِ مَعَ السَّنَد منْ كُلِّ طالبٍ إلى شيخه حتّى النَّبيِّ ﷺ.

وكذلكَ لَمْ يكنْ هذا الأمرُ معروفاً ، ولَمْ يَزَلْ مُهملاً في غيرِ القرآنِ إلى يومنا هذا .

(٣)

نشأ علمُ التّجويد ، وهوَ طريقةُ لفظِ النَّبيِّ ﷺ كلَّ حرفٍ منَ القرآنِ، حتّى إنَّ العلماءَ ضَبَطوا مقدارَ طولِ كلِّ حرفٍ منْ حروفِ المَدِّ .

وهذا أيضاً لَمْ يفعلْهُ أحدٌ في ضبطِ كتابٍ غيرِ القرآنِ، ولا أحَدَ يفعلُهُ حتّى الآنَ في التّحرّي لضبطِ الكُتُب.

(٤)

اخترَعَ العلماءُ طريقةَ تمييزِ الحُروفِ المتشابهَةِ بواسطةِ النَّقط ،

كالفَرْقِ بينَ الجيمِ والحاءِ والخاءِ بالنَّقط ، وَهُوَ شيءٌ لَمْ يكُنْ معروفاً عندَ العَرَبِ طولَ تاريخِهِمْ .

(٥)

اخترَعَ العُلَماءُ الحَرَكاتِ الثَّلاثَ والسُّكُونَ في ضبطِ الحُروف، وَهيَ الفتحةُ والضّمةُ والكسرةُ والسكونُ، منْ أجلِ القرآنِ أوّلاً ثُمّ أُدخلتْ على الكُتُبِ الأُخرى.

وَنَشأتْ علومٌ أخرى تخدمُ معانيَ هذا القرآنِ الكريمِ وتفسيرِه ، وهيَ مَعَ ذلكَ تُعينُ القارئَ على معرفةِ أسبابِ الضَّبطِ واختلافِ وجوهِه ، وأثرِ ذلكَ على المَعْنى.

(١)

نشأ علمُ الصَّرف، لمَعرفةِ أسبابِ ضبطِ الكلماتِ في غيرِ آخرِها، ولَهُ صلةٌ عظيمةٌ بمعرفةِ مَعاني الكلماتِ المفردَة. وإنْ كانَ يُستخدَمُ هذا العلمُ في كُلِّ الألفاظِ العربيّةِ ولو في غيرِ القرآن.

(٢)

نشأ علمُ النّحوِ، لمعرفةِ ضبطِ أواخرِ الكلماتِ، وبه تُعرفُ المعاني التركيبيّةُ للجُمَلِ، واختلافُها واحتمالاتُها. وإنْ كانَ هذا العلمُ يُستخدمُ في غيرِ القرآنِ أيضاً.

❁❁❁❁❁

ثُمَّ نشأتْ علومُ التفسيرِ، وهيَ التي تتناولُ معانيَ القرآنِ منْ وجوهٍ كثيرةٍ.

(١)

نشأ علمُ مُفرداتِ القُرآنِ الكريمِ، لبيانِ معاني الكلماتِ المفرَدةِ منْ حيثُ اللّغةُ أصلاً، ثُمَّ منْ حيثُ المقصودُ بها في القُرآنِ الكريمِ خصوصاً.

(٢)

ونشأ علمُ إعرابِ القرآنِ، وهُوَ تطبيقُ قواعدِ النّحوِ على آياتِ القرآنِ الكريمِ، وكانَ التركيزُ في البدايةِ على مواضعِ

الإشكالِ، ثُمَّ اكتملَ هذا العلمُ حتى وُجدتْ كُتبٌ تُعربُ كلمةَ القرآنِ وجُملَهُ كُلَّها تفصيلاً.

(٣)

نشأ علمُ الأساليبِ القرآنيةِ، وهُوَ التفسيرُ البلاغيُّ للقُرآنِ الكريمِ.

(٤)

ونشأ علمُ قواعدِ تفسيرِ القُرآنِ الكريمِ.

(٥)

ونشأ علمُ قواعدِ استخراجِ الأحكامِ الشرعيَّةِ منَ القرآنِ والسُّنَّةِ، وهُوَ علمُ أصولِ الفقهِ.

(٦)

ونشأ علمُ تفسيرِ الأحكامِ الشّرعيَّةِ المستَنبطَةِ منَ القرآنِ الكريمِ خاصَّةً، وهيَ الكُتبُ المعروفةُ بأحكامِ القرآنِ.

ثُمَّ توسّعتْ كُتُبُ التّفسيرِ توسُّعاً كبيراً، وكثُرتْ كثرةً عظيمةً،

كلٌّ منها يحاولُ أنْ يتناولَ جانباً مهمّاً، ومنهُم مَنْ يجمعُ كلَّ الجوانبِ في كتابٍ واحد، وكُتِبَتْ كُتُبٌ موسوعيَّةٌ، وكُتُبٌ متوسطةٌ، وكُتُبٌ موجزةٌ ليقرأَ كُلُّ إنسانٍ منها ما يُناسبُ مستواهُ.

ثُمَّ فُسِّرَ بغيرِ اللُّغةِ العربيَّةِ الَّتي أُنزلَ بها، ومُنِعَتْ ترجمتُهُ، فلا بُدَّ لكلِّ مَنْ يفسِّرُهُ أنْ يرجعَ إلى لُغتِه الَّتي أُنزلَ بها، حتَّى لا يعتمدَ النَّاسُ على تلكَ التَّرجماتِ وَتنشأَ طُرقٌ متفرِّقةٌ في فهمِه حَسْبَ اللُّغات.

مَعَ التَّنبيهِ إلى سببٍ آلَهُ لا يمكنُ أنْ يُتَرْجَمَ، وَهُوَ أنَّ تركيبَ ألفاظِه على الوجهِ الَّذي أُنزلَ أمرٌ اختصَّ اللهُ تعالى بالقُدرةِ عليه، فَمِنَ المُحالِ أنْ يقدرَ بَشَرٌ عليه.

وَالتَّرجمةُ يدخُلُها اختلافُ فَهْمِ المترجمينَ فَتختلفُ صورةُ القرآنِ في أذهانِ النَّاسِ حَسْبَ التَّرجَمَةِ لوسُمِحَ بترجَمتِه[1]

(١) وما يسميه الناس الآن ترجمة القرآن هو في حقيقته تفسير باللغة التي كتب بها لذلك يكتبون عليها((ترجمة معاني القرآن)) يعني معناه حسب فهم المترجم.

الكُتُبُ السَّابقةُ تُرجمَتْ أعني التَّوراةَ وَالإنجيلَ وَضاعتِ الأناجيلُ الَّتي كُتِبَتْ بلُغةِ بني إسرائيلَ الَّتي أُنزلَ بها الإنجيلُ.

وَهذا المستوى العظيمُ منَ الحفظِ وَالضَّبْطِ كانَ سدّاً عظيماً في وجوهِ أهلِ الآراءِ الشَّاذَّةِ المبتدَعَةِ أنْ يُغيِّروا ألفاظَ القرآنِ بحَسْبِ مقاصدِهِمْ.

فَقَدِ اختلفَ المسلمونَ في أمورٍ كثيرةٍ، أمَّا هذا القرآنُ فلا يَزالُ مكتوباً مقرُوءاً كَما أُنزلَ، قَدْ سَخَّرَ اللهُ تعالى لَهُ هذهِ العلومَ وَهؤلاءِ العُلماءِ، فَانفَرَدَ مِنْ بَيْنِ كُلِّ الكُتُبِ السَّماويَّةِ وَغيرِها بوجوهٍ منَ الحفظِ المُحكَمِ الوثيقِ الَّتي لَمْ ينَلْها غيرُهُ، فَهَلْ يمكنُ لِبَشَرٍ أيّاً كانَ أنْ يقولَ:

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1]، فَتَهيَّأَ لَهُ كُلُّ هذهِ العُلومِ منْ أسبابِ الحفظِ الَّتي انفرَدَ بكثيرٍ منها بالنِّسبةِ إلى ما قبلَهُ وَما بعدَهُ منَ الكُتُبِ؟.

(١) سورة الحجر، الآية (٩).

ثُمَّ نالَهُ مِنْ بَقيَّتِها الَّتي نالت الكُتُبَ الأُخرى قبلَهُ أَوْ بعدَهُ حظٌّ وافرٌ لا يُشبِهُهُ فيه كتابٌ تحقيقاً لخبرِ اللهِ في قولِه سُبحانَهُ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]. وَمَنْ يستطيعُ أَنْ يقولَ هذا إِلاَّ مَنْ يعلمُ ما كانَ وَما يكونُ إِلى أَبدِ الآبدينَ، إِلاَّ مَنْ ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[2].

أَليسَ مِنْ حَقِّه أَنْ يقولَ لعبادِه جميعاً:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[3].

---

(١) سورة الحجر، الآية (٩).

(٢) سورة طـه، الآية (٧).

(٣) سورة البقرة، الآيتان (٢٣-٢٤).

الإعجاز في موافقة الكشوف العلمية للقرآن الكريم

وَالحَديثُ عنِ الإخبارات الغَيْبِيَّةِ الَّتي تحقَّقَتْ، لَهُ صلةٌ وَثيقةٌ بالحديثِ عَنْ مُوافقَةِ الكُشوفِ العلْميَّةِ للقرآنِ الكَريمِ، مَعَ أنَّها أُمورٌ لَمْ تكنْ معروفةً في زَمَنِ النَّبيِّ ﷺ لأَحَدٍ مِنَ العُلَماءِ فضلاً عنِ البُسَطاءِ.

وَهذا لا يمكنُ أَنْ يُفسَّرَ إِلاَّ بأَنَّ هذا الكتابَ أَنزلَهُ علاَّمُ الغُيوبِ الَّذي لا تَخفى عليه خافيَةٌ، وَلا يمكنُ أَنْ يأتيَ بِهِ الخَلقُ وَلَوْ كانَ بعضُهُمْ لبعضٍ ظهيراً أي مُعاوِناً ومُساعِداً.

وَفِي هذا الموجَزِ أُحِبُّ أَنْ أذكُرَ **بِالجَانِبِ الطِّبِّيِّ في القُرآنِ الكَريمِ** ممَّا يَتعلَّقُ بِكشفِ معلوماتٍ لمْ تكنْ معروفةً.

وَالمعلوماتُ الطِّبِّيَّةُ ما بينَ زمنِ النَّبيِّ ﷺ وَزَمانِنا بعدَ أربعةَ عَشَرَ قرناً قَدْ تغيَّرتْ تغيُّراً كثيراً حتَّى كأنَّها انقلَبَتْ رأساً على عَقِبٍ.

وَمَعَ ذلكَ تظلُّ المعلوماتُ الطِّبِّيَّةُ وَالوَصايا المتعلِّقَةُ بِها في القرآنِ الكريمِ مَوضعَ تقديرِ المنصفينَ منْ أهلِ العُلومِ الطبِّيَّةِ غيرِ المسلمينَ، وَمَوضعَ إعجابٍ شديدٍ لهمْ وَباباً منْ أبوابِ الهدايةِ للباحثينَ عَنِ الحَقِّ وَالهُدى منْ طريقِ البراهينِ العلميَّةِ.

❁❁❁❁❁

وَيكفي لإثباتِ الإعجازِ الطِّبِّيِّ في القرآنِ الكريمِ:

ألاَّ يكونَ في أوامرِه وَنواهيه المتعلِّقةِ بِالطِّبِّ مخالفةٌ لشيْءٍ منَ المعلوماتِ الطبِّيَّةِ المحقَّقةِ.

لأنَّ علومَ الطِّبِّ تطورتْ مُنذُ عصرِ نزولِ القرآنِ تَطوُّراً كبيراً قَلَبَ كثيراً منَ المعلوماتِ - إنْ لَمْ نَقُلْ أكثرَها - وَكانتْ مكَّةُ أَقلَّ بُلدانِ العالَمِ معرفةً بِالطِّبِّ، فلو أنَّ هذا القُرآنَ كانَ منْ قولِ البَشَرِ لَكانَ في شيءٍ منْ تعليماتِه ما يوافقُ الطِّبَّ في عصرِه، ويخالفُ ما استجدَّ في العُصورِ اللاحقةِ، فَهذا المقدارُ وَحْدَهُ معجزةٌ لا تُقاوَمُ وَلا تُنكَرُ.

أمَّا إذا جاءَ تطوُّرُ العلمِ الطبِّيِّ لِيُؤكِّدَ تلكَ المعلوماتِ القرآنيَّةَ الطبِّيَّةَ، وَلِيَكشفَ عن مجالاتٍ أكبَرَ لفوائدِ الأوامرِ وَأضرارِ النَّواهي، كانَ ذلكَ مستوىً منَ الإعجازِ أرقَى ممَّا سَبَقَ.

لكنَّ الَّذي نجدُهُ في القرآنِ الكريمِ هُوَ شيْءٌ فوقَ ذلكَ كُلِّه.

فَفي الحديثِ عَنْ **خَلْقِ الإنسانِ** نجدُ وصفاً دقيقاً لأطوارِ الجَنينِ وَتكوينِ الإنسانِ يختلفُ مَعَ النَّظرياتِ العلميَّةِ الَّتي كانتْ سائدةً في عصرِ نُزُولِ القرآنِ وَيتَّفقُ مَعَ المعلوماتِ الطِّبِّيَّةِ المُحقَّقَةِ بعدَ أربعةَ عَشَرَ قرناً منْ نزولِ القرآنِ، وَقَدْ أُفرِدَتْ لِبَيانِه كُتُبٌ مُستَقِلَّةٌ.

وَنَجِدُ مَعَ ذلكَ مِنْ **قَوَاعِدِ الطِّبِّ الوِقائِيِّ** جانباً عظيماً يحمي أتباعَ القرآنِ مِنْ أمراضٍ كثيرةٍ جداً لشمولِه أهمَّ الأساساتِ الوِقائيَّةِ، وَالشُّمُولُ التَّامُّ ليسَ ضروريًا، لأنَّهُ كتابُ دينٍ أصلاً لا كتابُ طبٍّ. وَيظهرُ ذلكَ مِنْ مُلاحظةِ أسبابِ المَرَضِ، وَ أثرِ الأوامرِ وَالنَّواهي القُرآنيَّةِ في صَدِّهَا.

❁❁❁❁❁

وذلكَ لأنَّ أهَمَّ أسبابِ المَرَضِ كَمَا يقولُ الأطِبَّاءُ مَا يَلِي:

أوَّلاً: ضَعْفُ تكوينِ الإنسانِ في **مَرحلَةِ الحملِ وَالرَّضاعِ**، ثُمَّ مرحلة الغذاء مَدَى الحَيَاة.

ا ــ فَفِي مرحلَةِ الحَمْلِ يضعُفُ بناءُ جسمِ الجنينِ كُلَّما كانتِ القَرابَةُ بينَ الزَّوجَينِ أكثرَ.

وَفي مُقابِلِ هذا نجدُ القرآنَ الكريمَ يُحَرِّمُ نكاحَ القَرابَةِ الشَّديدةِ منَ الدَّرجَةِ الأولى: الأصولِ وَالفُرُوعِ، وَالدَّرجَةِ الثَّانيَةِ الأخَواتِ، وَالدَّرجَةِ الثَّالثَةِ العمَّاتِ وَالخالاتِ وَبناتِ

الأخِ وَبناتِ الأختِ تحريماً قاطعاً باتاً لا يحتملُ اختلافَ الفهمِ ووجهاتِ النظرِ.

وَهذا احتياطٌ صحيٌّ كبيرٌ، وَالزِّيادةُ عليهِ تضييقٌ على النَّاسِ، وَليسَ الاحتياطُ الصِّحيُّ وَحْدَهُ سببَ التَّحريمِ بلْ يُصاحِبُهُ الاحتياطُ منَ الأضرارِ الاجتماعيَّةِ، وَهيَ مُهِمَّةٌ جدّاً.

ب ــ وَفِي المرحلة نَفْسِهَا نجدُ في القرآنِ تحريمَ الزِّنا وَتحريمَ النِّكاحِ في الحَيْضِ وَالنِّفاسِ بِسَبَبِ الأمراضِ الكثيرةِ الَّتي تُؤذي الرَّجُلَ وَالمرأةَ، وتُؤذي تكوينَ الجنينِ – لَوْ وُجِدَ بعدَ ذلكَ – وَقَدْ أُفرِدَتْ لذلكَ كُتُبٌ وَرَسائلُ جامعيَّةٌ.

وَكانَ إعدادُ إحدى الرَّسائلِ سبباً في إسلامِ طبيبةٍ أمريكيَّةٍ حينَ رأتِ الفَرْقَ الكبيرَ في نسبةِ الأمراضِ الجنسيَّةِ بينَ نساءِ الإسلامِ وَغيرِهنَّ.

وَلوْ لَمْ يكنْ منَ إعجازِ القرآنِ طبِّياً إلاَّ الصِّيانَةُ منَ الإيدزِ وآثاره المُدَمِّرَةِ على الرَّجُلِ وَالمرأةِ وَتكوينِ الجنينِ لكانَ كافياً وكانَ مُبرِّراً لتشديدِ عُقُوبَةِ الزَّاني.

مَعَ مُلاحَظَةِ الأَهَمِّيَّةِ الكُبْرى للأَضرارِ الاجتماعيَّة .

ج ـ وَفي **مَرحلةِ الرَّضاعِ** نجدُ القرآنَ الكريمَ يقولُ:

﴿وَالوالداتُ يُرضِعْنَ أَولادَهُنَّ حَولَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾ (١).

وَقَدْ ثَبتَ طبِّيًّا أَنَّ تكوينَ الرَّضيعِ في خلالِ الحَوْلَيْنِ يعتمدُ على حَليبِ أُمِّه اعتماداً كبيراً، لا يُساويه فيه بَديلٌ، وَهُوَ يستغني عنهُ تماماً بعدَ تمامِ الحولَيْنِ وَينقصُ بناءُ الجسمِ كُلَّما نَقصَتْ المُدَّةُ عَنِ الحولَيْنِ.

د ـ فإذا انتقلْنا إلى مرحلةِ الغذاء بالطَّعامِ كانَ أوسعَ الأبوابِ لدُخولِ المَرضِ على الإنسانِ هُوَ الخَلَلُ في مقدارِ الطَّعامِ وَالشَّرابِ. فالنَّقصُ يُضعفُ بناءَ الجسْمِ، وَالزيادةُ تُرهقُهُ، وَقَدْ جاءَتْ آياتُ القرآنِ تأمرُ بالأكلِ وَالشُّربِ، وَتَنهى عنِ

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٣٣).

الإفراطِ فيهما: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ (١).

وَقَدْ أفرَدَ الأَطبَّاءُ تأليفات كثيرةً لأمراضِ نقصِ التَّغذيةِ، وَلأمراضِ الإفراطِ في الطَّعامِ وَالشَّرابِ، فيَكادُ مَنْ يقرؤُها يَظُنُّ أَنَّ هذَينِ الأمرَينِ سببٌ لكُلِّ الأمراضِ .

وَلأَهمِّيَّةِ هذا التَّوازُنِ قالَ أَطبَّاءُ الإسلامِ قديماً : "إنَّ اللهَ تعالى اختصرَ الطِّبَّ في هذه الآية ".

هـ ـ وَإذا وقعَ **الخَلَلُ في الغِذاءِ** أَوْ في تَوقيتِه كانَ في الصِّيامِ إصلاحٌ لِهذَينِ الجانِبَيْنِ منَ الخَلَلِ، وَكانَ فيهِ وقايةٌ منْ حُصُولِ الخَلَلِ إذا لَمْ يكُنْ قَدْ وَقَعَ فعلاً.

هذا الصِّيامُ فَرَضَهُ اللهُ تَعالى فَرْضاً كُلَّ عامٍ لِمُدَّةِ شهرٍ كاملٍ.

وَقَدْ كَشَفَ الطِّبُّ الحديثُ عَنْ جوانبَ كثيرةٍ مِنَ العلاجِ بالصِّيامِ، وَأُلِّفَتْ فيه كُتُبٌ، وَأُنشِئَتْ لَهُ مَصَحَّاتٌ – وَإنْ كانَ يَختلفُ عندَ غيرِ المسلمينَ عَنِ الصَّومِ الشَّرعيِّ بعضَ الشَّيْءِ

(١) سورة الأعراف، الآية (٣١).

لكنَّهُ يلتقي مَعَهُ ويُوافِقُهُ في كثيرٍ مِنَ الجَوانِبِ - وفي الصِّيامِ الشّرعيِّ مِنَ الفوائِدِ النَّفسيَّةِ والاجتماعيَّةِ ما يَزيدُ الصِّحَّةَ قُوةً وَصِيانَةً.

ثانياً: وَمِنْ أَهَمِّ أسبابِ المَرَضِ أنْ يكونَ الغِذاءُ طعاماً أوْ شراباً فيهِ ضَرَرٌ، وتَحريمُ ذلكَ ضروريٌّ لصحةِ الإنسانِ فرداً وجماعةً وقد جاء في القرآنِ الكريمِ مِنْ ذلكَ شيْءٌ غيرُ قليلٍ، وأهمُّهُ ما جاءَ في قولِهِ تَعالى:

أ ـ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾[1].

ب ـ وفي قولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ

(١) سورة البقرة، الآية (١٧٣).

رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

وَقَدْ شَرَحَ الأَطِبَّاءُ مِنْ غَيْرِ المُسلمينَ مَا في ذلكَ مِنَ الأَضرارِ الصِّحيَّةِ الكَثيرةِ.

فَفي الخَمْرِ إفسادٌ لأجهزةٍ كثيرةٍ في الجسمِ دَفَعَتْ أمريكا فيمَا مَضَى لتحريمِهِ وفَشلَتْ.

وأمّا لَحمُ الخِنزيرِ، فَقَدْ قالَ فيهِ "جايلورد هوزر" وَهُوَ مِنْ أشهرِ أطبّاءِ الغِذاءِ في العَالَمِ:

((مُنْذُ سَنواتٍ بعيدةٍ ذكرتُ بأنَّ الخِنزيرَ لَيسَ لَهُ مَكانٌ في أيِّ نظامٍ غذائيٍّ صَحيحٍ)).

وَمِنَ الضَّروريِّ أنْ نَتذكَّرَ بهذهِ المُناسبةِ أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في وقتٍ لَمْ يكُنْ فيهِ أحدٌ يعرفُ عَنْ أضرارِ الخِنزيرِ شيئاً يُذكَرُ.

(١) سورة المائدة، الآية (٩٠).

وَقد استقرَّ في القواعدِ الإسْلاميَّةِ المشهورةِ عندَ العَوامِّ قـولُ العُلَماءِ: ((كُلُّ مُضرٍّ حَرَامٌ)) .

وَهذهِ القاعدةُ تجمَعُ مِنْ أسبابِ صيانةِ الصِّحَّةِ وَغيرِها مَـا لا يُحصَى. وَقَدْ سَمِعْتُ صيدَلِـيّاً غيرَ مُسلمٍ يقولُ :

"إنَّ هذه القاعدةَ الإسلاميَّةَ مِنْ أعظَمِ القَواعدِ الإنسانيـَّة" .

وَسَيَأتِي الإشارةُ إلى مصدرِ هذه القاعدة مِنَ القُرآنِ الكريمِ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى .

ثالثاً: وَمِنْ أهَمِّ أسبابِ المَرَضِ انتقالُ الجَرَاثيمِ إلَـى الإنْـسانِ بواسطَةِ الأقذارِ أوِ العَدوى مِنَ الآخَرينَ.

وَهُنا نجدُ في آياتِ القُرآنِ الَّتِي تأمُرُ بالطَّهارةِ صيانَةً عظيمَـةً لحياةِ الإنسانِ ، تبدأُ بإزالَةِ فَضَلاتِ الإنْـسانِ وآثارِهَـا في الجسمِ وَالثِّيابِ كَالبولِ وَالبُرازِ وَالحَيضِ وَالنِّفاسِ.

وَتُثنِّي بالوُضُوءِ فَتَغْسِلُ الأَعضاءَ الأكثرَ تَعَرُّضـاً للأقْـذارِ. وَتُثلِّثُ بِغُسْلِ الحَيضِ وَالنِّفاسِ وَالجَنابَةِ مِنَ الجماعِ. هَـذا إذا اقْـتصرَ الإنسانُ عَلَى الطَّهارَةِ المَفروضَةِ دُونَ زيادةِ النَّـوافِلِ عَلَيها كَـغُسلِ الجُمُعَةِ وَالوُضوءِ لكُلِّ فريضةٍ، وَهُنَّ خَمْـسُ صَلَواتٍ يوميّاً.

وَفي **تحريمِ النِّكاحِ في الحيضِ وَالنِّفاسِ** جانِـبٌ كَـبيرٌ مِنْ تَجَنُّبِ العَدوى - مَعَ ما في ذلكَ مِـنْ تجَنُّـبِ الأضرارِ النَّاتِـجَةِ عنِ النِّكاحِ نفسِهِ - وَقَدْ قالَ اللهُ تَعَـالى :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾[1].

فَأخَذَ العلماءُ منها أنَّ النِّكاحَ في الحَيضِ مُحَـرَّمٌ بِـسَبَبِ الأذى - وَهُوَ الضَّرَرُ اليَسيرُ - وَأخذوا منها" أنَّ كُـلَّ أذىً مُحَرَّمٌ ، وَأنَّ كُلَّ ضَرَرٍ مُحَرَّمٌ بالأَولى" . إضَـافَةً إلى مَـا في

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٢٢).

الآياتِ الأخرى مِنْ **تحريمِ الضَّرَرِ** ، صِحِّيّاً كانَ أوْ غيرَهُ، فَعَبَّروا عَنْ ذلكَ بِقولِهِمْ : ((كُلُّ مُضِرٍّ حَرامٌ والضَّرَرُ يُزالُ)). وَأشدُّ مِنْ ذلكَ في الفتْكِ بالصِّحَّةِ وَنقلِ العدوى الزِّنا وَاللِّواطُ – إضافةً إلى الأثرِ السيئِ على الجَنينِ – وَقَدْ حَرَّمَهُمَا القرآنُ أشدَّ التَّحريمِ وَعاقَبَ عليهما أشدَّ العُقوبَةِ، وَصانَ بذلِكَ المؤمنينَ الطائعينَ عنْ أشدِّ الأمراضِ تدميراً للإنسانِ. في حينِ عَجَزَ الإباحيُّونَ عنْ صِيانَةِ أتباعِهِمْ منْها ، مَعَ ما يملكونَ منْ وسائلِ العِلمِ وَالإعلامِ وَالقَوانينِ وَالقُوَّة .

رابعاً: وَحينَ يقعُ المَرَضُ يحتاجُ الجِسْمُ إلى العلاجِ بالدَّواء . وليسَ منْ مُهِمَّةِ القُرآنِ وهو كتابٌ دينيٌّ أنْ يُفصِّلَ في ذِكْرِ الأدويةِ، بلْ يكفي منْ ذلكَ أنْ يكونَ ما يذكرُهُ صحيحاً غيرَ قابلٍ للخطأ .

وَقَدْ جاءَ في القرآنِ الكريمِ ذِكْرٌ صريحٌ **لأثرِ العَسَلِ في الشِّفَاءِ** ، فَقالَ : ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾[1]. وَتكفينا هذه الآيةُ عَنِ الآياتِ الَّتي أشارَتْ إلى أدويةٍ أخرى دونَ تصريحٍ ففي هذهِ الآيةِ مِنَ الفوائدِ مُلاحَظاتٌ:

(١)

مِنها: قُوَّةُ أثرِه في الشِّفاءِ، لأنَّ النَّكرةَ هَهُنا ﴿شِفَاءٌ﴾ تَدُلُّ عَلَى التَّكثيرِ وَالتَّعظيمِ، وَقدْ كثُرَتْ الدِّراساتُ الحَديثةُ عَنِ العَسَلِ، وَعَنْ كَثرةِ الأمراضِ الَّتي يُداويها، وَأُفردَتْ لَهُ كُتُبٌ كثيرةٌ في غيرِ العالَمِ الإسلاميِّ وحَسْبُ العاقلِ هذا دليلاً على الإعجازِ.

---

(١) سورة النحل ، الآيتان (٦٨–٦٩).

(٢)

وَمِنهَا: عُمُومُ الفائدَةِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ ، وَفِي ذلكَ إشارةٌ إلى كثرةِ الأمراضِ الّتي يُداويهَا وَتَنوُّعِهَا حَسْبَ كثرةِ النّاسِ الّتي تَظهرُ مِنْ عُمُومِه، وَإلى أنَّ الاستفادةَ ليسَتْ مقصُورةً عَلَى أهلِ الإيمانِ بِهذهِ الآيةِ. وَإنْ كانَ حظُّهُمْ - بِسَبَبِ الأثرِ الإيمانيِّ - فيهِ أكبرَ إذِ الثّقةُ بالدّواءِ ممَّا يزيدُهُ نفعاً.

(٣)

وَمنْهَا: أثرُ تنوّعِ غذاءِ النّحلِ على قوّةِ ما فيهِ منَ الشّفاءِ أخذاً مِنْ قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [1].

(٤)

وَمنْهَا: أنَّ الشّفاءَ لا يَتناولُ كُلَّ الأمراضِ في جميعِ الأحوالِ، أخذاً مِنْ ((تَنكيرِ الشّفاءِ))، ممَّا يُحتّمُ عَلَى النّاسِ أنْ

(١) سورة النحل ، الآية (٦٩).

يدرُسُوا طُرُقَ الاستفادةِ منهُ ويُنَمُّوها علَى الوَجهِ المُفيدِ بحَسْبِ عِلمِهِمْ.

❁❁❁❁❁

خامساً: بَقِيَ مِنْ أمورِ الطّبِّ في القُرآنِ الكريمِ شيءٌ عَلَى غايةٍ مِنَ الأهمّيّةِ هُوَ **قوةُ نفسِ المريضِ** ، وقوةُ ثقتهِ بالشّفاءِ، وَقَدْ أكّدَتْ الدّراساتُ الطبيّةُ الحديثةُ على الأثرِ الكبيرِ لهذا الجانبِ منَ العلاجِ حتّى في أعتى الأمراضِ وَأشدِّها طُغياناً وَتمرُّداً على العلاجِ وَهُوَ السّرطانُ وحسبُنا في هذهِ المجالِ يقينُ المُسلمينَ الطّائعينَ بقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [1].والآياتُ في هذا البابِ كثيرةٌ .

❁❁❁❁❁

(١) سورة الشعراء ، الآية (٨٠).

لَقَدْ حاولْتُ أنْ أوجزَ الإعجازَ الطِّبيَّ في القرآنِ الكريمِ أشدَّ الإيجازِ فاكتفيتُ منهُ بأقلِّ القليلِ.

وأهمُّ ما في ذلكَ أنَّ الوقايةَ الطبيَّةَ في القُرآنِ منهجٌ وليستْ قُطُوفاً متناثرةً، وأنّهُ كُلّما تقدَّمَ العلمُ كثرتْ مؤيِّداتُهُ واندفعَتْ عنهُ الشُّبهاتُ الّتي يُلقيها المُبطلونَ، تحقيقاً لقولِ اللهِ تعالى:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (١).

(١) سورة النساء ، الآية (٨٢).

القرآن
إعجاز تشريعي متجدد

أرادَ ربُّ العبادِ بالقرآنِ العظيمِ أنْ يُخرجَ النّاسَ منَ الظُّلماتِ إلى النُّورِ، وأنْ يطفئَ بتشريعهِ نيرانَ الشُّرورِ، ويُظلَّهمْ من عدالته بظلالِ السَّعادةِ والسُّرورِ.

وقدْ شاءَ سُبحانَهُ أنْ تكونَ هذهِ الشَّريعةُ معجزةً تُثبتُ – بنفسها وبما فيها من حكمةٍ تضمنُ المصالحَ وتدفعُ المفاسدَ – أنّها تنزيلُ الحكيمِ الرحيمِ ، لا يقدرُ على مثلِها الخلائقُ ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً.

وقدْ يسَّرَ ليَ المولى سبحانَهُ أنْ أكتبَ مجموعةً منَ المقالاتِ (*)

* نشر بعض هذه المقالات في جريدة "البيان الإماراتية" في رمضان (١٤١٩) هـ .

تجلّي هذه الحقيقة بشيءٍ منَ التفصيلِ، ولا شكَّ أنَّ إعطاءَها حقّها الّذي يليقُ يحتاجُ إلى تفصيلٍ كثيرٍ، لكنْ خشية الإملالِ جعلتْني أكتفي بهذه المقالاتِ، وكلُّ مجموعةٍ منْها يتجلّى فيها مستوىً منَ الإعجازِ غيرُ ما في الأُخرى.

ففي المقالة الأولى شرحت معنى الإعجاز. وفي الثانية ضربتُ مثالاً منْ واقعِ كيفيّةِ تأليفِ الكتُبِ عندَ العلماءِ، وأنّهُ لا بُدَّ لكلِّ عملٍ إنسانيٍّ أنْ يقعَ القصورُ فيه، وشرحتُ كيفَ سَما هذا القرآنُ عنْ كلِّ خطأٍ وقصورٍ، وأنَّ هذا ظاهرٌ بداهةً لا يخفى على أحدٍ مهما قلَّ علمُه ومهما كثُر، ما دامَ يُدركُ هذهِ المعانيَ ويتعلّقُها.

وقد بيّنتُ أنَّ إعجازَ القرآنِ منْ جهةِ التشريعِ ثابتٌ منْ وجوهٍ أربعةٍ، كلٌّ منها وحدَهُ يكفي لإثباتِ الإعجازِ إثباتاً لا يرفضُهُ إلاّ معاندٌ:

الوجهُ الأولُ: إقرارُ الجهاتِ القانونيةِ العلميّةِ في العالمِ كلّه بجدارته أنْ يكونَ مصدراً قانونياً مُهِمّاً.

والوجهُ الثّاني: استمرارُ صلاحيّةِ هذا القرآنِ في ضمانِ الحياةِ السّعيدةِ للأُمّةِ قُرُوناً طويلةً، دونَ حاجةٍ إلى تعديلٍ، خلافاً لكُلِّ قوانينِ الدُّنيا.

والوجهُ الثّالثُ: سُمُوُّهُ فوقَ كلِّ الانتقاداتِ الّتي وجّهَها إليه خصومُهُ، فلا يُوَجِّهُ إليه أحدُهم نقداً إلاّ أثبتَ العلمُ ومواقفُ الإنصافِ أنَّ الحقَّ بجانبِ القرآنِ وأنَّ منتقديه همُ المخطئونَ.

والوجهُ الرابعُ: تفوُّقُهُ على كلِّ قوانينِ الدُّنيا في حلِّ المشاكلِ المستعصيةِ على كلِّ القوانينِ مثلَ مشكلةِ المخدّراتِ.

واكتفيتُ منهُ بأمثلةٍ محدودةٍ، وعسى اللهُ أنْ يُيسّرَ لي التوسعَ في ذلك - بفضله - قريباً إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

ولمّا كانَ القصدُ هوَ التنبيهَ إلى الحكمةِ الإلهيّةِ في التشريعِ القرآنيِّ، وإلى المصالحِ التي يحققها منْ كلِّ حُكمٍ يُذكَرُ، لا إلى شرحِ تفصيلاتِ الأحكامِ وتحقيقِها وإثباتِها؛ لمّا كانَ الأمرُ

كذلكَ أقللتُ منَ الاعتمادِ على المراجعِ كلِّ الإقلالِ ، وَأكثرتُ منَ الاعتمادِ على إظهارِ الحكمةِ – حسْبَ استطاعتي – وَالحكمةُ منْ مداركِ العقولِ ، تستغني بنفسِها عنْ توثيقِ المَراجِعِ.

وَمَا كانَ فيهِ منْ خيرٍ فمنْ فضلِ اللهِ، وَمَا كانَ منْ قُصُورٍ وَتقصيرٍ فمنّي، وَأسألُ اللهَ مغفرته.

وَهوَ سبحانَهُ المسؤولُ أنْ يباركَ فيهِ ويتقبَّلَهُ ، لهُ الحمدُ في الأولى وَالآخرةِ، وَصلّى اللهُ على سيِّدنا محمَّدٍ وَآلِهِ وَصحبِهِ وَسلَّمَ .

القرآن شريعة تفوق طبيعة التشريع البشري

القرآنُ شريعةٌ تفُوقُ طبيعةَ التشريعِ البشريِّ، القرآنُ معجزةٌ إلهيَّةٌ، وَهذا الإعجازِ جهاتٌ كثيرةٌ منْ أهمِّها الإعجازُ التشريعيُّ، وَأعني بالتشريعِ كلَّ الأحكامِ العمَليّةِ وَالاعتقاديةِ، الَّتي كانَ لها أثرٌ مهمٌّ في إسعادِ الإنسانِ على مستوى الفردِ وَالمجتمعِ وَالأمَّةِ، وَلا أعني القوانينَ القضائيةَ وَمَا يتعلقُ بالنُّظُمِ فَقَطْ، كَمَا هوَ الاصطلاحُ في فقهِنا الإسلاميِّ، وَالدِّراساتِ القانونيَّةِ المعاصرةِ.

وَإذا كانتِ المعجزةُ سمِّيتْ معجزةً لأنَّ البَشَرَ يَعجزونَ عنْ أنْ يأتوا بمثلِها، فمنَ المُهمِّ أنْ نَتبيَّنَ شيئاً منْ مستوياتِ المعجزةِ، حتَّى يتبينَ لنا مكانُ القرآنِ الكريمِ منْ هذهِ المستوياتِ.

فهذهِ المستوياتُ تجتمعُ كلُّها في معنىً واحدٍ هوَ إثباتُ أنَّ

صاحبها الّذي ظهرتْ على يده عاجزٌ عنها بنفسه ، هوَ وَكلُّ أمثاله ، فلا يمكنُهُ أنْ يأتيَ بها لولا عونُ اللهِ تعالى.

وتفترقُ مستوياتُها بينَ عملٍ يعجزُ عنهُ الفردُ وتُطيقُهُ الجماعةُ ، أو يعجزونَ عنهُ في حالٍ وَتمكنُهُمْ في حالٍ ، وبينَ عملٍ يعجزُ عنهُ جميعُ البَشرِ مهما امتدَّ الزمانُ ، لأنه خارجٌ عنْ حدودِ طبيعتهمْ ، بلْ يعجزُ عنهُ كلُّ المخلوقين.

فهناكَ عملٌ لا يطيقُهُ إلاّ منْ كانَ منْ أهلِ العلمِ كتفصيلات المسائلِ العلميةِ العميقةِ وتعليلاتِها ، فهذا حينَ يأتي به إنسانٌ أميٌّ – دونَ خداعٍ وَلا تمويه – يُقال : إنّهُ جاءَ بمعجزةٍ تدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى أيّدَهُ.

وَهناكَ أمرٌ تطيقُهُ الجماعةُ ويعجزُ عنهُ الفردُ ، كمَا لو استطاعَ إنسانٌ أنْ يحملَ مئاتِ القناطيرِ حقيقةً دونَ تمويه أو تخييلٍ أو خداعٍ.

وَهناكَ أمرٌ يكونُ معجزاً في عصرٍ معيَّنٍ ، وَلا يكونُ معجزاً في

غيره ، كمَا أخبرَ النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلّم قومَهُ بأنّهُ ذهبَ في ليلةٍ واحدةٍ منَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى وَرَجَعَ ، فقد اكتفوْا منهُ بوصفِ المسجدِ الأقصى، وبالإخبارِ عنْ قافلتِهمْ في الطريقِ، لكي يحكموا بأنَّ ما حصلَ منهُ خارجٌ عن طاقةِ البشرِ، فآمنَ مَنْ آمنَ ونسبَهُ مَنْ جَحَدَ إلى السِّحرِ، فأجمعَ الفريقانِ على أنّهُ أمرٌ غيرُ طبيعيٍّ، وَتميزَ أهلُ الإيمانِ بنظرةٍ محكمةٍ اعتمدوا فيها على أنّهُ لمْ يُعرفْ عنهُ الكذبُ قط، وَأنَّ هذا الذي حصلَ لا يدخلُ في نطاقِ السحرِ، لأنَّ السحرَ تخييلٌ لا حقيقةٌ ، فلمْ يبقَ تفسيرٌ لمَا حَدَثَ إلا التصديقُ بالخبرِ على أنه تأييدٌ منَ اللهِ لنبيِّه صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنَّ واقعَ الحياةِ يومئذٍ كانَ يقتضي شهرَينِ للذهابِ والإيابِ.

وَلو ادَّعى ذلكَ إنسانٌ في عصرِنا لقيلَ لهُ: إنَّ هذا يمكنُ أنْ يحصُلَ بالطائرةِ، وذلكَ طبيعيٌّ، لا يحتاجُ إلى خرقٍ لقوانينِ الطبيعةِ بعونِ اللهِ تعالى خصوصيةً لصاحبِه.

وَهناكَ أمرٌ خارجٌ عنْ إمكانياتِ الطبيعةِ البشريةِ كمعرفةِ

المستقبلِ البعيد، لا سيَّما ما كان منه يمتدُّ عبرَ مئاتِ السنينَ أو أكثرَ منْ ذلكَ ، ومثلُهُ – بلْ وأعظمُ منهُ – وضعُ نظامٍ للحياةِ تستمرُّ صلاحيتُهُ على امتدادِ القرونِ الكثيرة، فهذا ليسَ مجرَّدَ كشفٍ لِمَا يأتي به المستقبلُ البعيدُ، بلْ هوَ حكمٌ على ذلكَ المستقبلِ البعيدِ بأنَّ أحداثَهُ يُصلحُها هذا النظامُ، ويدفعُ عنها الفسادَ، وَهوَ أكبرُ منْ مجردِ الكشفِ عنْ حدثٍ مستقبليٍّ أوْ أحداثٍ عدَّة .

وَإعجازُ الشريعةِ القرآنيةِ مع شرحِها وهو السنةُ النبويَّةُ – إذْ كلاهُما جاءَ به إنسانٌ واحدٌ – هذا الإعجازُ ثابتٌ على كلِّ هذهِ المستوياتِ، فلو أنَّهُ ما استطاعَ إلا إنسانٌ ضليعٌ في علومِ القوانينِ أنْ يأتيَ بمثلِ شريعةِ القرآنِ لكانَ ذلكَ كافياً في إثباتِ الإعجازِ القرآنيِّ ، لأنَّ الأمِّيَّ مهما كانَ ذكيّاً عبقرياً لا يمكنُ أنْ يأتيَ بما يستطيعُهُ العالمُ المتضلِّعُ في اختصاصه .

وكذلكَ لو استطاعَ مجموعةٌ منَ الاختصاصيينَ المتضلعينَ أنْ يأتوا بمثلِ شريعةِ القرآنِ ، لَظلَّ هذا القرآنُ معجزاً ، لأنَّه جاءَ

بهِ إنسانٌ أميٌّ، وَلكنَّ القرآنَ حينَ تحدّى قالَ للنَّبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلّم: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (١).

فهذا التحدّي ليسَ مقصوراً على فردٍ وَلا جماعةٍ وَلا زمانٍ، وَمعَ ذلكَ جاءَ الواقعُ خلالَ أربعةَ عشرَ قرناً يصدِّقُهُ.

فتعالَ معي أيُّها القارئُ ننظرْ في هذهِ القضيةِ بشيءٍ منَ التمعنِ:

القوانينُ – كما هوَ مُشاهَدٌ في عصرِنا – لا يضعُها إنسانٌ واحدٌ مهما كانَ عبقرياً متعمِّقاً في الدّراساتِ القانونية، إنَّما تجتمعُ عليها – في الأُمَمِ المتقدِّمةِ – لجانٌ تختصُّ كلُّ لجنةٍ منها بقانونٍ معيَّنٍ:

لجنةٌ لأحكامِ الأسرةِ – أي الأحوالِ الشَّخصيَّةِ – وَلجنةٌ للقانونِ المالِيِّ، وَلجنةٌ للقانونِ الجنائيِّ، وَهكذا...

وَتبحثُ كلُّ لجنةٍ في مراجعِ اختصاصِها وَالقوانينِ المتقاربةِ،

(١)سورة الإسراء ، الآية (٨٨).

فإذا تكوّنت القوانينُ المقترَحةُ طُرحتْ للمناقشةِ والتنقيحِ، ثمّ تُعتَمدُ بعدَ ذلكَ للتَّطبيقِ، وتظلُّ أبداً تحتَ التّعديلِ حسبَ مَا يستجدُّ منَ المعلوماتِ القانونيّةِ، ومَا يكشفُهُ التطبيقُ منْ حاجةٍ إلى الزيادةِ أوِ النُّقصانِ، هذا هوَ حالُ البشريّةِ حينَ تضعُ القوانينَ.

أمّا أنْ يجيءَ إنسانٌ واحدٌ بنظامٍ فيه كلُّ فروعِ القوانينِ، حتّى العسكريّةِ والدّوليّةِ، وحقوقِ الأقليّاتِ، وحتّى القواعدِ الدُّستوريّةِ، وحتّى قواعدِ استخراجِ الأحكامِ منْ موادِّ القانونِ، وبدونِ أنْ تكونَ عندَهُ أيُّ مراجعَ، ودونَ أنْ يسبقَ لهُ شيءٌ منَ الدّراسةِ حتى في أداةِ العلمِ الأُولى ((القراءة والكتابة))، ويستمرُّ العملُ بهِ مئاتِ السنينَ دونَ تعديلٍ، فيعيشَ النّاسُ بسببِهِ في أمانٍ عظيمٍ، ثمَّ يكونَ هذا التشريعُ الذي جاءَ بهِ معترفاً بهِ لَدَى الأكاديميّاتِ القانونيّةِ في العالمِ، فهذا أمرٌ لا يملكُ عاقلٌ إلاّ أنْ يُقرَّ بأنّهُ معجزةٌ إلهيّةٌ.

وهذا الاعترافُ العالميُّ يظهرُ في شيئَيْنِ:

الأوّلُ: هوَ قراراتُ المؤتمراتِ القانونيّةِ العالميّةِ، كمؤتمرِ (لاهاي) للقانونِ الدّوليِّ المقارَنِ عامَ (١٩٣٧)م، حيثُ قرّرَ المجتمعونَ أنّ الشريعةَ الإسلاميّةَ تُعتبَرُ مصدراً منْ مصادرِ التّشريعِ العامّ، وأنّها شريعةٌ حيّةٌ مرنةٌ قابلةٌ للتّطوّرِ، وأنّها قائمةٌ بذاتِها ليستْ مأخوذةً منْ غيرِها، وتكرّرَ هذا في مؤتمرِ المُحامينَ الدّوليِّ في لاهاي، عامَ (١٩٤٨)م، وكانَ منْ مُقرَّراتِه:

((أنّهُ يَجبُ علَى جمعيةِ المُحامينَ الدّوليّةِ أنْ تتبنّى الدراسةَ المُقارَنَةَ للشّريعةِ الإسلاميّةِ، وتشجّعَ علَيْها)).

ولا بُدَّ أنْ نتذكّرَ وضعَ البلادِ الإسلاميّةِ في العامَيْنِ المذكورَيْنِ، حيثُ كانتْ أكثريةُ بلادِ المسلمينَ تحتَ الاستعمارِ لا تستطيعُ أنْ تؤثّرَ على قراراتِ المؤتمرِ، بلْ لا تستطيعُ أنْ تنتصفَ وتأخذَ حقَّها.

الثّاني: تلكَ الشهاداتُ العلميّةُ العُليا منْ درجةِ التخصُّصِ

الماجستيرِ إلى دَرَجةِ الأُستاذ ((البروفيسور))، تمنحُها الجامعاتُ حتّى في غيرِ العالَمِ الإسلاميِّ لِدارسي الشّريعةِ الإسلاميّةِ. فلولا أنَّ هذهِ الشّريعةَ ذاتُ اعتبارٍ علميٍّ محترَمٍ لَمَا قَبِلَتِ الجامعاتُ غيرُ الإسلاميّةِ بها، لا سيّما في البلادِ الّتي تَدينُ بغيرِ دينِ الإسلامِ. فهذا الاعترافُ وحدَهُ كافٍ في إثباتِ الإعجازِ في التّشريعِ الإسلاميِّ النّابعِ منَ القرآنِ الكريمِ.

وَلكنَّ الشّأنَ أعظمُ منَ الاعترافِ وَأعجبُ، فهذهِ الصّلاحيّةُ للتّطبيقِ – بعدَ مرورِ أربعةَ عشرَ قرناً عَلَى صُدُورِه – مُخالفَةٌ لطبيعةِ القوانينِ كلِّها حديثِها وَالقديمِ؛ لأنَّهُ بَقِيَ صالحاً للتّطبيقِ دونَ أيِّ تغييرٍ في قواعدِه، بينَما القوانينُ كلُّها تحتاجُ للتّعديلِ دائماً، فالظروفُ تتغيَّرُ، وَالعلمُ يتطوّرُ، وَالأحداثُ تتجدَّدُ، فَلا يزالُ التّعديلُ يستمرُّ حتّى يكونَ الفارقُ بينَ القوانينِ وبينَ الأصلِ الّذي نشأتْ منهُ عظيماً جدّاً.

وَأظهرُ مثالٍ عَلَى ذلكَ هوَ القانونُ الرّومانيُّ، الّذي نشأتْ منهُ أكثرُ القوانينِ الأوربيّة، وتفرّعتْ عنهُ.

فلَوْ أنَّ إنساناً قارنَ اليومَ بينَها وبينَهُ لَما خطرَ في بالهِ أنَّهُ كانَ أصلاً لَها، لكثرةِ الفوارقِ، وَللتّغيُّراتِ منَ النّقيضِ إلى النّقيضِ أحياناً كثيرةً، فالمَلِكُ في بعضِ تلكَ الأزمانِ كانَ فوقَ القانونِ، ثمَّ آلَ أمرُهُ – في بعضِ القوانينِ الحديثةِ – إلى أنْ لا يكونَ لهُ تدخُّلٌ في سياسةِ بلادِه، وَالمجرمُ يكونُ مَحطّاً لغضبِ الأمّةِ ونقمتِها – في بعضِ الأزمانِ – ثمَّ يتحوّلُ في بعضِ القوانينِ المُعاصرةِ إلى مريضٍ يستحقُّ العطفَ وَالعلاجَ بالتّرفيهِ، وَهذا يُبيّنُ لنا أنَّ البشرَ وَإنِ اجتمعُوا لا يُمكنُ أنْ يأتوا بنظامٍ يَصمُدُ لتجدُّدِ الأحداثِ وَتغيُّرِ الأزمانِ وَالأوطانِ، دونَ تغييرٍ وتعديلٍ، فَهلْ يمكنُ أنْ يأتيَ إنسانٌ – مهما كانَ عبقرياً، وَمهمَا كانَ علمُهُ واسعاً – بقانونٍ تصمُدُ قواعدُهُ لتحدّياتِ الزّمانِ، وَاختلافِ الأممِ وَالأوطانِ، وَيظلُّ صالحاً للعملِ بهِ، فَيسعَدَ النّاسُ في ظلّهِ بالأمانِ؟

فكيفَ يمكنُ أنْ يأتيَ بهِ إنسانٌ أميٌّ، لولا أنَّهُ أنزلَهُ عليهِ ربُّ السّمواتِ وَالأرضِ مُدبّرُ الأحداثِ وَمقلّبُ الأزمانِ ؟!

وَكَمَا صمَدَ هذا التشريعُ لتقلُّبات الزَّمان صمَدَ لاختلافات المكان، وَافتراق طبائع الإنسان، فوجَّهَ الحياةَ في قلب الصَّحراء العربيَّة، وَفي أفريقية، وَفي الهند، وَفي ممالك فارس، وَفي جنوب أوربا، فسارَ بها إلى رُبوع الأمن وَالإخاء، دونَ أنْ يحتاجَ إلى أيِّ تعديل في قواعده، وَهذا أيضاً على خلاف طبائع القوانين، فَمَا منْ قانون طُبِّقَ في غير مَنْشئه إلاّ احتاجَ إلى تعديلات كثيرة، كَمَا هوَ الحالُ في القانون الفَرَنسيِّ أو الإنكليزيِّ، اللَّذَيْن طُبِّقا في المُستعمَرات، أو البلاد الَّتي تَتْبَعُها في ثقافتها، وَكَمَا كانَ شأنُ الاشتراكيَّة حيثُما دخلتْ منَ البلاد في القرن العشرين.

لكنْ شريعةُ القرآن لَمْ تحتَجْ إلى شَيْء منَ التَّعديل، رَغمَ سَعَة البلاد الَّتي حَكَمَتْ فيها، وَتنوُّع الشُّعوب الَّتي دانتْ بها، أَفيَمْلكُ بَشَرٌ أنْ يعرفَ طبائعَ كُلِّ الأُمَم، ويُقدِّرَ ما يُصلحُها منَ القوانين، وَهُوَ لَمْ يخرجْ منْ بلاده، وَلا عرَفَ شَيْئاً عنْ تلكَ البلاد، لَولاَ أنَّه أيَّدَهُ الخَلاَّقُ العليمُ الخبيرُ؟!

وَلَمْ يستغنِ هذا التَّشريعُ عنِ التَّطوير فَقَطْ، بلْ كانَ يسمُو دائماً فوقَ كلِّ انتقاد، فلا يَتوجَّهُ إليه أحدٌ بنَقد ويُوضَعُ نقدُهُ في موازين العلم وَالإنصاف إلاّ تَبيَّنَ أنَّ الحقَّ في تشريع القُرآن، وَأنَّ النَّقدَ كانَ وهماً أوْ تزويراً. وَأمثالُ هذه الهَجَمَات كثيرٌ يعرفُهُ وَيعرفُ مصيرَهُ أهلُ العلم وَالإنصاف، ولعلَّ الكثيرينَ يَذْكرونَ ما يُسمّونَهُ عالَمَ الحُرِّيَّة في الغَرْب، وَكيفَ دمَّرتْهُم تلكَ الحُرِّيَّةُ الهَوْجاءُ، فَراحُوا يَضَعُونَ عَلَيها قيوداً بعدَ قُيود، وَلا يزالُ فسادُها غيرَ مَحْدود، وأمثالُ هذه الهجمات كثيرٌ يعرفُهُ ويعرفُ مصيرَه أهلُ العلم بالإنصاف. وَفوقَ هذا كلِّه فإنَّ نجاحَ التَّشريع القُرآنيِّ حيثُ فشلتِ القوانينُ كلُّها معجزةٌ تفوقُ كلَّ مستوىً سبقَ ذكرُهُ، فقدْ نجحَ قديماً في حلِّ مشكلات اجتماعيَّة تستعصي اليومَ على أحدث القوانين في أقوى الدُّوَل وَأغناها، وَأكثرها علْماً وَسيطرةً على الإعْلام، نجحَ في إلغاء شُرب الخمر، وَعجزَ العالَمُ الحديثُ عنْ ذلكَ، وَعنِ التَّخلُّص منَ المُخدِّرات وَهيَ

أحتُ الخمرِ، وَنجحَ في إلغاءِ الزِّنا، وَإنشاءِ المجتمعِ الطَّاهرِ الَّذي يستحيل أنْ ينتشرَ فيهِ مرَضُ الإيدْزِ وَأخواته، وَعجـزَ العـالمُ الحديثُ كلُّهُ بقوانينهِ وَعلومهِ وَأجهزةِ إعلامهِ، وَنجحَ في إلغاءِ وجودِ الفقرِ حيثُ عجزَتْ كلُّ الأممِ الغنيَّةِ وَالفقيرةِ، نجحَ كثيراً وَفشلوا كثيراً.

وَمعَ ذلكَ نجدُ النَّاسَ حتَّى المسلمينَ غافلينَ عنِ العَظمةِ الإصلاحيَّةِ فيهِ، غافلينَ عنْ ذلكَ التَّحدِّي الَّذي لا زالَ يتكرَّرُ عَلَى الأسماعِ:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(١).

ألاَ ينتبهونَ إلى ذلكَ الوعدِ الكريمِ الَّذي صدَّقَهُ واقعُ الحياةِ:

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾(٢).

(١) سورة الإسراء، الآية (٨٨).

(٢) سورة طه، الآية (١٢٣).

إعجاز القرآن

مثال وتوضيح

هلِ القرآنُ الكريمُ معجزةٌ لا يستطيعُ البَشَرُ جميعاً أنْ يأتوا بمثله؟:

سؤالٌ ينبغي لكُلِّ مؤمنٍ بهذا القرآنِ، وَلكلِ كافرٍ بهِ أنْ يبحثَ عنْ جوابهِ، لأنَّ هذا القرآنَ يقولُ: إنَّ سعادةَ الدُّنيا مضمونةٌ في اتِّباعهِ، وَشقاءَ الدنيا ناتجٌ عنْ تركهِ.

اسمعْهُ يقولُ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾(١).

بلْ يقولُ: إنَّ هذهِ الحياةَ ليستْ خاتمةَ الإنسانِ، وَوَراءَها حياةٌ أبديَّةٌ سعادتُها مضمونةٌ في اتِّباعهِ، وَشقاؤُها ناتجٌ عنْ تركهِ.

(١) سورة طه، الآية (١٢٣ـ١٢٤).

اسمعهُ يقولُ: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[١].

وَإذا كانَت القضيَّةُ بِهذه الخُطورَة فَمِنْ واجبِ المُؤمنِ – إنْ كانَ حريصاً عَلَى مصلحة نفسه – أنْ يُسارعَ إلَى العَمَلِ به ، وَمِنْ واجبِ الكافرِ أنْ يتحققَ مِمّا كفرَ به، فإمَّا أنْ يتبينَ لهُ أنَّهُ الحَقُّ فَيُغيِّرَ موقفَهُ، وَإمَّا أنْ يكتشفَ أنَّ موقفَهُ صحيحٌ فيتَمَسَّكَ به ، وَيشتدَّ في الإنكارِ عَلَى المُسلمينَ، ويقولَ لهُم: دَعُونَا مِنْ هذه الدَّعاوي الفارِغَة !!

وَطريقُ المؤمنِ وَالكافرِ هوَ النَّظرُ في هذا التَّحدي الَّذي يُعلِنُهُ القرآنُ:

(١) سورة السجدة ، الآية (١٩ــ٢٠).

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[١].

وَهذا النَّظرُ ليسَ بأمرٍ غامضٍ وَلا مُعقَّدٍ. فَهَذا الكتابُ منسوبٌ إلى اللهِ عزَّ وَجلَّ على أنَّهُ كلامُهُ، وَقدْ جاءَتْ هذه النِّسْبةُ عَلَى لسانِ إنسانٍ أُمّيٍّ، فإنْ كانَ هوَ كلامَ اللهِ حقّاً فَلا شكَّ أنهُ خالٍ منْ أيِّ خطأٍ مهما كانَ يسيراً، وَإنْ لَمْ يكنْ منْ كلامِهِ فما أيسرَ أنْ يَكتشفَ النَّاسُ خطأً بلْ أخطاءً كثيرةً في كلامِ إنسانٍ أُمّيٍّ ؟!

لكنْ لا بُدَّ أنْ يكونَ الخطأُ محقّقاً، وَليسَ منَ الأمورِ الَّتي تختلفُ فيها وجهاتُ النَّظَرِ، فَيقولُ بعضُ النّاسِ: هذا خَطأٌ ، وَيقولُ الآخرونَ : هذا صوابٌ ، أوْ يقولونَ: لا نَدري.

وَما أسهلَ أنْ يوجدَ الخطأُ المحقّقُ في كلامِ إنسانٍ أُمّيٍّ ؟!

أمّا أنْ يُؤلِّفَ إنسانٌ كتاباً خالياً منَ الخَطأِ وهوَ يتناولُ قضايا

(١) سورة الإسراء ، الآية (٨٨).

كثيرةٍ في أمورٍ مُتنوِّعَةٍ تختلفُ فيها الأنظارُ، وتُغيِّرُها تغيُّراتُ الأعصارِ، دونَ أن يكونَ مُؤيَّداً منَ اللهِ فهذا ما ينفيهِ العقلُ وَالمنطقُ في تاريخِ الإنسانيّةِ كلِّه، بلْ إنَّ التّجاربَ أثبتتْ أنَّ خُلُوَّ كتابٍ منْ أخطاءِ الطّباعةِ يكادُ يكونُ مستحيلاً، معَ أنَّهُ خطأٌ معلومٌ ، فكيفَ يمكنُ أنْ يخلوَ منَ الخطأِ كتابٌ يتناولُ أموراً متنوّعةً تختلفُ فيها الأنظارُ، وتُغيِّرُها تقلّبُ الأعصارِ ؟!

وَيتضحُ ذلكَ منْ خلالِ الافتراضِ التّالي، إنْ شاءَ اللهُ تعالى؛ لنفترِضْ أنَّ العالمَ كُلَّهُ اتَّفقَ على أنْ يتعاونَ في تأليفِ كتابٍ، وَلنفترضْ أنَّهُ في علمٍ تجريبيٍّ، فإنّه يَقلُّ مجالُ الخطأ فيهِ قدرَ الإمكانِ، وَلنفترضْ أنّه في علمٍ واحدٍ هوَ الطّبُّ، وَفي اختصاصٍ واحدٍ منْهُ هوَ أمراضُ القلبِ، وَلا يشتركُ فيهِ إلاّ أعلمُ رجالِ الاختصاصِ، يُودِعُونَ فيهِ أوثقَ معلوماتِهِمْ، هلْ يمكنُ أنْ يَقعَ في هذا الكتابِ خطأٌ ؟

قدْ نقولُ: لا، وَقدْ نختلفُ ، إلاّ أننا نتّفقُ بلا شكٍّ على أنَّ احتمالَ الخطأِ قليلٌ جدّاً، إنْ لمْ يكنْ معدوماً.

لكنْ هلْ يمكنُ أنْ يُكتَشَفَ فيهِ خطأٌ بعدَ عَشْرِ سنينَ ؟

قدْ نقولُ: نعمْ، وَقدْ نختلفُ، لكنْ إذا مضتْ مائةُ سَنَةٍ فسنتّفقُ على أنَّ الخَطَأَ أَصبَحَ مُحَقَّقاً؛ لأنَّ التطورَ يكشفُ عنِ الأخطاءِ الّتي كانتْ خفيّةً في الزّمَنِ الماضي، إذنْ فكيفَ يكونُ حالُ الكتابِ المذكورِ بعدَ ألفِ سنةٍ؟ وَكمْ يظهرُ فيهِ منَ الأخطاءِ؟!

تعالَ معي أيُّها القارئُ لنغيِّرَ جانباً منَ الافتراضِ الّذي افترضناه، ثُمَّ نرى أثرَ التّغييرِ.

فقدْ ذكرْنا أنَّ كُلَّ المختصّينَ في العالمِ اجتمعوا على تأليفِ هَذا الكتابِ، ألا يزيدُ احتمالُ الخطأِ إذا شاركَ فيهِ نصفُهمْ فقطْ؟ ثُمَّ كمْ يزيدُ الاحتمالُ إنْ كانوا رُبعَ المختصّينَ؟.

ثُمَّ كمْ يزيدُ الاحتمالُ إنْ كانوا عُشْرَ المُختصّينَ، بلْ ثلاثةً منهمْ بل واحداً؟ وَقدْ مَضَى على تأليفِ الكتابِ ألفُ عامٍ؟

عُدْ معي أيُّها القارئُ ثانيةً إلى افتراضنا لنُغيِّرَ فيهِ جانباً آخرَ ، ثُمَّ نرى أثرَ التّغييرِ، لقدْ قُلنا: إنَّ الكتابَ في اختصاصٍ واحدٍ هوَ أمراضُ القلبِ، ألاَ تزيدُ نسبةُ احتمالِ الخطأِ لوْ قلنا إنّه في

اختصاصَيْن؟ فكمْ تزيدُ النسبةُ لو قلنا: إنَّهُ في الأمراضِ الباطنيَّةِ كُلِّها؟ ثُمَّ كمْ تزيدُ إذا قلنا: إنَّهُ في الطِّبِّ بجميعِ اختصاصاتِه؟

ثُمَّ كيفَ يكونُ حالُ الكتابِ لو أضفنا إلى علمِ الطِّبِّ عُلوماً أُخرى تتعلَّقُ به كعلمِ الصَّيدَلَة، وَصناعةِ الدَّواء، وَكصناعةِ الوسائلِ الطِّبِّيَّة، وَكالهندسةِ الوراثية، وَأثرِها على الأمراضِ والبيئة، وَآثارِها على الصِّحَّة، وَكعلمِ النَّفسِ وَأثرِه على الأمراض؟

كيفَ يكونُ حالُ الكتابِ وَالمؤلفُ واحدٌ وَالاختصاصاتُ متنوِّعَةٌ، وَالعلومُ متعددةٌ وَقدْ مَضَى منَ الزَّمَنِ ألفُ عامٍ؟ أوْ قُلْ مَا الَّذي يبقى منَ الصَّوابِ في الكتاب ؟!

لا تضْجَرْ منِّي أيُّها القارئُ، فهذهِ المرَّةُ الأخيرةُ الَّتي أدعوكَ فيها للتَّغيير:

لقد افترضنا أنَّ المؤلِّفينَ أوِ المؤلِّفَ في أعلى درجاتِ الاختصاص، فلنفترِض الآنَ أنَّه مُبتدئٌ في اختصاصه، ألاَ يزيدُ

احتمالُ الخطأ؟

وَكمْ يزيدُ الاحتمالُ لوْ كانَ مؤلِّفُهُ لا يحملُ إلا شهادةَ الثَّانويَّة، بلِ الإعداديَّة، بلِ الابتدائية؟

ثُمَّ ماذا لو كان أميّاً، لا يعرفُ حتَّى أداةَ العلْمِ الأولى – أي القراءةَ وَالكتابةَ –، بلْ أمْلَى الكتابَ إملاءً ؟!

كمْ ينبَغي أنْ يبقى منَ الصَّوابِ في هذا الكتابِ إذا كانَ هذا حالُ مؤلِّفه، وَانفردَ به وحدَهُ، وَتناولَ علوماً متعددةً، وَمضى عليه ألفُ عامٍ، بلْ قُلْ ألفٌ وَأربعُمائةٍ وَثلاثونَ عاماً ؟!

أَلاَ يَدُلُّ خلُوُّهُ منَ الخطأ على أنَّهُ منْ عنْدِ الله ؟!

هَذا هوَ مثالُ القرآنِ الكريمِ : تناولَ علوماً متعددةً :

(١) خُلاصةُ علمِ العقائدِ الدِّينيَّة، مَا صحَّ منْها وَما أصابَها منْ فساد.

(٢) وَخُلاصةُ تاريخِها وَأطوارِها منذُ فجرِ الإنسانيَّة .

(٣) وَخُلاصةُ تاريخِ الإنسانيَّةِ نشأةً وَأطواراً معَ أشهرِ أُمَمِ الأنبياء.

(٤) وَخُلاصةُ علمِ الأخلاقِ، وَما يَطرأُ عَلَـيْها منَ الفَسادِ.

(٥) وَأساسُ أنواعِ العِبَادات.

(٦) وَخُلاصةُ علمِ الحُقوقِ بِكُلِّ فروعِهِ: الأحوالِ الشخـصيَّةِ وَالأُسَرِيَّةِ، وَالحُقوقِ الماليَّةِ، وَالقوانينِ المدنيَّـةِ، وَالعـسكريَّةِ وَالحربيَّةِ وَالدَّوليَّةِ، وَقواعدِ إثباتِ الحُقُوق.

(٧) وَناقَشَ الخُصُومَ وردَّ شُبهاتِهِمْ.

(٨) وَتعرَّضَ لِعلومٍ أُخرى تعرُّضاً يقِلُّ حيناً، ويَزيـدُ حيـناً، كعِلْمِ الفَلَكِ وَالطَّبيعةِ بحراً وَبرّاً وَجوّاً، وَكعِلْمِ الحَيوانِ، وَعلمِ النَّباتِ.

هذا الكتابُ جاءَ على لسانِ إنسانٍ أُمِّيٍّ، في بلادٍ أُمِّيَّةٍ، في أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ، وَهُوَ يتحدَّى مُنذُ ألفٍ وَأربعمائةٍ وَثلاثينَ عاماً، يتحـدَّى كُلَّ النَّاسِ وَمَعَهمُ الجنُّ، يقولُ لهمْ: أثبِتُوا خطأً واحداً تكونونَ على يقينٍ منهُ، أوْ قولوا: آمنَّا باللهِ واشهدْ بأنَّا مُسلمونَ.

هلْ يقدرُ على هذا التَّحدي غيرُ اللهِ الَّذي وَسِعَ كُـلَّ شـيءٍ عِلْماً؟! ما بالُ النَّاسِ لا ينظرونَ في شأنِ هذا القُرآنِ؟!

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1]. صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ.

❁❁❁❁❁

(١) سورة النساء، الآية (٨٢).

هذا التشريع، ومنافسته التشريعات الأخرى الحديثة، رغم قدمه وتطاول الأعصار عليه، لكن قبل الخوض في هذا الحديث لا بد من التنبيه على أمرين:

أولهما: دفع شبهة يرددها بعض خصوم الإسلام، حيث زعموا أن هذه القواعد التشريعية لم تأت من التشريع القرآني وشرحه – وهو السنة – وإنما جاءت من عبقرية الفقهاء الذين درسوا التشريع القرآني، وصاغوه في قواعد قابلة للتطور، ومواكبة الأحداث المتجددة.

هذه الشبهة منقوضة بداهة؛ لأن التشريعات الأخرى في العصر القديم كالقانون الروماني حظيت بفقهاء قانونيين عباقرة، وحظيت في العصر الحديث بهم أكثر فأكثر؛ إذ أصبحت لها جامعات وأساتذة مختصون على أعلى المستويات.

ويؤازرهم اكتشافات العلوم الحديثة التي يحتاجها القانون كالطب والاجتماع والسياسة.

ومع ذلك كله لم تستغن هذه القوانين عن التغير والتبديل

لمواكبة تطور الأحداث دون تعديل ولا تبديل، وهذا هو الأمر المعجز الذي لا يستطيعه البشر.

الثاني: أن استمرار الصلاحية مقياسه ضمان المصالح، ودفع المفاسد، وليس مقياسه تلبية شهوات الناس، ما ضر منها وما نفع، فالإباحية التي يسمونها حرية جنسية مرفوضة في التشريع الإسلامي، بل هي جريمة كبرى يعاقب عليها أشد العقاب؛ لكثرة مفاسدها الصحية، وما فيها من حرمان الطفل من والده، أو من والديه، وإن كان أهل الشهوات يرغبون في هذه الإباحية، ويرونها منفعة، وحقا طبيعيا، فهذه المنفعة تحصل في الزواج بدون أضرار، فالزواج هو الأمر الطبيعي وليس الإباحية.

وإذا قد انتهى المقصود من هذين التنبيهين المهمين فقد حان العود إلى الحديث عن أن التشريع الإسلامي يقوم على قواعد شمولية في ضمان المصالح ودفع المفاسد، وأنه جزء من دين ذي مبدأ شامل ينظم شؤون الحياة ويوجهها في طريق الإصلاح،

وهذا المبدأ وما فيه منْ توجيه الحياة الوجهةَ القويمةَ، هوَ الَّذي أعانَ التشريعَ القضائيَّ على نجاحٍ مُهِمَّته ذلكَ النَّجاحَ المنقطعَ النَّظيرِ.

فَالتَّشريعُ الإسلاميُّ – إذَا قصدْنا به الأحكامَ القضائيةَ فَقَطْ – هوَ جزءٌ منْ هذا الدِّينِ الَّذي يقومُ على عقيدةٍ وثيقةِ الصِّلَةِ بالتشريعِ، بلْ هي أساسُهُ ، وَعَلَى نظامٍ تربَويٍّ داخلَ الأُسرةِ وفي المسجدِ وَالمجتمعِ؛ وَلهذينِ الجانبَينِ أثرٌ عظيمٌ في تَقَبُّلِ الأُمَّةِ للتَّشريعِ في جانبِه القانونيِّ، وللالتزامِ به، وفي محاسَبَةِ النَّاسِ أنفُسَهُمْ عليه قبلَ المَحاكمِ ، وَفي ملاحَظَتِهمُ العقوبةَ الإلهيَّةَ في الآخرةِ معَ خوفِهمْ منْ عقوبةِ الدُّنيا ، فلا يقعُ في مخالفةِ القانونِ إلاَّ أقلُّ النَّاسِ، وَفي حالاتٍ قليلةٍ لا تشكِّلُ اضطراباً في الأمَّةِ عندَ التَّطبيقِ الصحيحِ، لأنَّ هُناكَ حوائلَ تربويَّةً خُلُقيةً وَدينيَّةً واجتماعيَّةً ، تَحُولُ بينَ الإنسانِ والمخالفةِ ، فإذا وقعتِ المخالفةُ ففي التَّشريعِ القضائيِّ ما يكفلُ حفظَ الحُقوقِ وَدفعَ المفاسدِ.

وهذا بخلافِ حالِ القوانينِ البشريةِ، فعدمُ ارتباطِها بالعقائدِ ومبادئِ الحياةِ اليوميَّةِ، أوْ قيامُها على عقائدَ ومبادئَ ليستْ سليمةً، جعلَ دورَها ضئيلاً في الحَدِّ منَ الجريمةِ والمفاسدِ، لأنَّ كثيراً منَ المبادئِ الَّتي يعيشونَ عليها تُسَبِّبُ تلكَ المفاسدَ، أو تُؤَدِّي إلى الجَريمةِ، وَعلى سبيلِ المثالِ فإنَّ شُربَ الخمرِ واحدٌ منْ أسبابِ الجريمةِ، معروفٌ أثرُهُ عندَ كُلِّ دارسٍ للْقانونِ، وَهوَ غيرُ ممنوعٍ عندَهمْ، وَضربُ الأمثلةِ لَهُ مجالٌ آخرُ، إنْ شاءَ اللهُ تَعالى.

وَمنْ أهمِّ المبادئِ الَّتي يقومُ عليها التَّشريعُ، ويكونُ لهُ أثرٌ كبيرٌ على تصرفاتِ النَّاسِ هوَ الهدفُ منَ الحياةِ الإنسانيَّةِ.

فالإسلامُ يعتبرُ الهدفَ منَ الحياةِ هوَ الإصلاحَ بمعناهُ الأشملِ، وهوَ الإيمانُ بخالقِ الكونِ، ووجوبُ طاعتِه، وأنَّ طاعتَهُ نفعٌ عاجلٌ وآجلٌ، وأنَّ منافعَ الحياةِ تُؤخَذُ ويتمتَّعُ بها بالعدلِ، وَليستْ هيَ هدفَ الحياةِ، إنَّما هي وسيلةٌ لاستمرارِ الحياةِ القائمةِ على الحقِّ والخيرِ، وواجبُ كُلِّ إنسانٍ أنْ يعرفَ حقَّ

أخيه الإنسانِ فيها، على الوجه الّذي شرَعَهُ اللهُ، فأعظمُ النّاسِ حقّاً الأقربُ نسباً وديناً، ثُمَّ الّذي يليه، ثُمَّ حُقوقُ الإنسانِ بغضِّ النّظرِ عن دينِهِ أو قرابتِهِ، أوْ غيرِ ذلكَ، والدُّنيا دارُ عملٍ، وَالآخرةُ دارُ جزاء.

وإذا قارنَ الإنسانُ بينَ هذا المبْدأ والمبْدأ الذي يسودُ اليومَ في أكثرِ البلادِ، وَجَدَ عندهُم أنَّ الحُصولَ على مُتعِ الحياةِ هوَ الهَدَفُ منَ الحياةِ، وأنَّ مهمَّةَ القوانينِ هيَ تنظيمُ ذلكَ ، وحلُّ الاختلافِ الذي يَنشأُ عنه، وَبذلكَ يُعرفُ الفارقُ بينَ أثرِ هذا وذاكَ على الحياةِ الإنسانيةِ جميعاً، وعلى التّشريعِ والعملِ بِهِ خُصوصاً، فإذا لاحظَ أنَّ المبْدأَ الإسلاميَّ يقومُ على أقومِ أساسٍ علميٍّ أدركَ أنَّ الفارقَ بينهما أعظمُ من أن تكونَ بينهما مقارنةٌ.

وبالإضافةِ إلى تلكَ المبادئِ جاءَ التّشريعُ كُلُّهُ قائماً على قواعدَ كلّيَّةٍ، تشمَلُ جوانبَ الحَياةِ جميعاً في توازنٍ مُحكمٍ بينَ شتّى الاتجاهاتِ في التّقنينِ ، فالحَياةُ ليستْ رهبانيّةً تحكُمُها قوانينُ

الرّهبانِ العازفينَ عنِ الدُّنيا، وليستْ حسيّةً غريزيّةً، تلهثُ وراءَ الطعامِ وَالشّرابِ وَالنّساءِ والمسْكَنِ وغيرِ ذَلكَ، في صراعٍ لا ينتهي، لكن فيها هذا وذاكَ بالقسطاسِ المستقيمِ، والاقتصادُ ليسَ فرْديّاً مُطلقاً، ولا جماعيّاً مُطلقاً، ولكن كانَ بينَ ذلكَ قَواماً، والحُكمُ ليسَ استبداديّاً مُطلقاً، ولا جمهوريّاً مُطلقاً يُعطي حقَّ اختيارِ الحاكمِ لأيِّ فرد، وإنّما هو وسطٌ يكونُ اختيارُ الحاكمِ فيهِ إلى المُصلحينَ المؤهّلينَ للاختيارِ، حسْبَ موازينِ الدُّستورِ الإلهيِّ، وهكذا حيثُ نظرَ الإنسانُ وَجَدَ هذا التوازنَ في كلِّ شيء .

وَتلكَ القواعدُ الشّاملةُ منها ما وَرَدَ صريحاً في القُرآنِ الكريمِ أو السُّنّةِ النّبويةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] وَقولِه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾[2] وَقولِ

---

(١) سورة الحج، الآية (٧٨).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٨٨).

النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ : ﴿ البيّنةُ على من ادّعى واليمينُ على من أنكرَ ﴾ (1) ، ومنها ما استخرجَهُ الفقهاءُ من النظرِ في الأحكامِ الجزئيةِ، والمقارنةِ بينَها كقاعدة ((الضررُ يجبُ أنْ يُزال)) بلْ نظرةُ التقعيدِ قدْ جعلَتْ فقهاءَ الإسلامِ ينظرونَ في الأحكامِ الجزئيةِ، ويستخرجُونَ أسبابَ الأحكامِ وعللَها، فيجعلُونها قواعدَ يشملُ حُكمُها كلَّ ما ماثَلَها .

وقدْ نظمَ فقهاءُ الإسلامِ هذهِ القواعدَ في تسلسُلٍ عجيبٍ، جعلَ بعضَها يدخلُ في بعضٍ، حتى اجتمعتْ كلها في الكلّياتِ الخمسِ المشهورةِ:

حفظُ الدّين ، والنّفسِ ، والعقلِ ، والعِرْضِ ، والمالِ ، ثمّ رتّبوا هذه الكلّياتِ الخمسَ حسبَ الأهميّةِ ، بحيثُ تُقدّمُ المصلحةُ الأهمُّ عندَ تعارُضِها، فيضحى بالمالِ لحفْظِ العرْضِ وكلّ ما

---

(1) صحيح البخاري بمعناه برقم (٢٥٢٣) ، واللفظ في سنن الدار قطني (٢٠٦/٤) ، وسنن البيهقي (١٥٠/١٠) وهو من كتاب عمر إلى أبي موسى .

قبلَهُ، ويضحى بالنّفسِ لحفْظِ الدّينِ، ولا يجبُ أن يضحى بها لحفظِ المالِ.

ومنْ خلالِ هذه القواعدِ الخمسِ وتفصيلاتها تصدّى التّشريعُ القرآنيُّ لأحداثِ الحياةِ المتجدّدةِ، فأعطى كلَّ ذي حقٍّ حقّهُ، وكانَ ذلكَ بتوازنٍ دقيقٍ بينَ العقلِ الإنسانيّ والنّصِ الإلهيِّ كلٌّ في مجالِه:

حدّدَ النّصُ الإلهيُّ المقاصدَ والأهدافَ ، ووضعَ الأسسَ الكبرى والمناهجَ المثلى لإصلاحِ الحياةِ، ولدفعِ الفسادِ عنها، وتركَ للعقلِ دورَهُ في استخراجِ الأحكامِ الجزئيةِ لكلِّ حادثةٍ منَ الأحداثِ، فلا العقلُ مُحكَّمٌ في أصلِ التشريعِ - وهوَ لا قِبلَ لَهُ به لكثرةِ ما يحتاجُ إليه ضبطُ المصالحِ من العُلومِ - فيقعُ في الأخطاءِ الفادحةِ، التي تجعلُ الإنسانَ يضطرُّ إلى التبديلِ والتعديلِ، ولا هُوَ مُهملٌ دورُهُ، فيبقى التشريعُ مقصوراً على حالاتٍ مُعيّنةٍ لا يتجاوزُها، مما يُبعدُ التشريعَ الإلهيَّ عنِ التطبيقِ.

هَذا التّوازنُ العجيبُ وَهذا الشُّمُولُ الدّقيقُ، وهذه القَواعدُ المحكَمَةُ نَتجَتْ عنها تلكَ الأحكامُ، التي عاشَ عليها العالَمُ الإسلاميُّ في إخاءٍ وَأمانٍ، لا يُعكّرُهما إلا الإعراضُ عنْ تلكَ الأحكامِ من بعضِ الحُكّامِ في بعضِ الأزمانِ ، مما يُؤكّدُ صَلاحيّتَها لرعايةِ الحياةِ الإنسانيةِ ، وكُلّما زادَ التمسكُ زادَ الإخاءُ وَالأمانُ، وكُلّما زادَ الإعراضُ عنها حَلّ الخصامُ ، وَقَلّ الأمانُ، وانتشرَ الإجرامُ .

ولا تَزالُ البلادُ التي حافَظَتْ على بقايا هذا التّشريعِ أكثرَ من غيرِها هي أكثرَ البلادِ الإسلاميةِ أمناً، وأقلّها جرائمَ، فإذا رَجعَ الإنسانُ إلى العهدِ النّبويِّ، والعهدِ الراشديِّ وَجدَ الصُّورةَ المُثلى لهذا التّشريعِ، وَوَجدَ الأمنَ الأمينَ، والإخاءَ العميمَ، بلِ الإيثارَ العظيمَ في انتظامٍ رائعٍ، كالذي نراهُ في انتظامِ الشّمسِ وَالقمرِ وَالنّجومِ والبحارِ والجبالِ وَالأشجارِ، وسائرِ مُكوّناتِ هذا الوجودِ، ولا غَرابَةَ فالذي وَضَعَ للكونِ نظاماً يَدُلُّ على أنّهُ الواحدُ القادرُ الذي أحسنَ كُلَّ شيْءٍ خَلَقَهُ ، هُوَ الذي

وَضَعَ للإنسانِ هذا النّظامَ التّشريعيَّ المُحكَمَ ، ليَدُلَّ على أنّهُ تشريعُ الحكيمِ العليمِ الرّحمنِ الرّحيمِ، ولكي لا تَقَعَ الشُّبهاتُ في القُلوبِ وَالعُقولِ أنزلَهُ على النّبيِّ الأميِّ في الأمّةِ الأميّةِ، ليَعلمَ الجميعُ أنّهُ ((تَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ)) ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1]. صَدَقَ اللهُ العظيمُ.

(١) سورة النساء، الآية (٨٢).

الخاتمة

وَصَدَقَ اللهُ العظيمُ، فَالحَمْدُ للهِ دائماً، ثُمَّ الصَّلاةُ على مُبَلِّغِ القرآنِ، رَحمَةِ اللهِ لِلْعالَمِينَ سيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحبِهِ أَجمعِينَ.

وَعسى اللهُ تَعالى أَنْ يُيَسِّرَ لي مِنْ بَيانِ إعجازِ القرآنِ ما هُوَ أوسعُ وَأعمقُ مِنْ هذا الموجَزِ.

وَقَدْ كُنتُ نَشَرتُ مقالاتٍ في الإعجازِ التَّشريعيِّ (*)، لعلَّ اللهَ سبحانَهُ يُيَسِّرُ نشرَها قريباً بِفَضْلِهِ وَجُودِهِ، وَما تَوفيقي إلاّ باللهِ، لَهُ الحمدُ في الأُولى وَالآخِرةِ.

* بعض هذه المقالات موجودة في هذا الكتاب

فهرس الكتاب

مقدّمة لفضيلة الشيخ عبد الهادي بدلة ٣

تمتاز هذه الطبعة ٦

الافتتاح بآيات مناسبات ٧

التعريف بالمؤلف ٩

كلمة المؤلف أثناء زيارته لدار عالم القرآن ١١

مقدّمة المؤلف ١٢

أثرُ مرورِ الزمنِ على معلوماتِ الكُتُب ١٥

أثرُ تعددِ الموضوعاتِ والعُلومِ على زيادةِ احتمالِ نسبةِ الخطأ في الكُتُبِ ١٦

أثرُ انفرادِ المؤلفِ على احتمالِ الخطأ في الكتابِ ١٧
أثرُ مستوى التحصيلِ العلميِّ عندَ المؤلفِ على احتمالِ
الخطأ في الكتابِ ١٨
وجوهٌ أخرى منْ إعجازِ القرآنِ ٢٣
الإعجازُ التشريعيُّ ٢٤
الإعجازُ الأدبـــيُّ ٢٩
الإعجازُ بكشفِ المستقبلِ ٣٤
موافقةُ الكُـــشوفِ العلميَّةِ للقرآنِ:
١. في موجزٍ عنِ الجانبِ الطبيِّ في القرآنِ
٢. إيضاحٌ أساسيٌّ
٣. خلقُ الجنينِ في القرآنِ والطِّبِّ
٤. القرآنُ وأصولُ الطِّبِّ الوقائيِّ ٤٥-٦٠
٥. مرحلةُ الحملِ (زواجُ القرابةِ)
٦. مرحلةُ الرَّضاعِ
٧. مرحلةُ الغذاءِ
٨. الوقايةُ منْ أضرارِ خللِ الغذاءِ بالصَّومِ
٩. تحريمُ كُلِّ مُضرٍّ

١٠. تحريمُ الزنا وتحريمِ النكاحِ في الحيضِ والنفاسِ
١١. العلاجُ بالعَسَلِ
١٢. كَثرةُ الأمراضِ الَّتي يُعالجُها العسلُ
١٣. تنميةُ الاستفادةِ منَ العسلِ في الشِّفاءِ
١٤. ثقةُ المريضِ بالشفاءِ تساعدُهُ على الشِّفاءِ
القرآن إعجاز تشريعي متجدد ٦١
القرآن شريعة تفوق طبيعة التشريع البشري ٦٥
إعجاز القرآن ((مثال وتوضيح)) ٧٧
مقاصد الشريعة ((قواعد شاملة وتوازن محكم)) ٨٦
الخـــاتـــمة ٩٨
فهرسُ الكـــتابِ ٩٩

إصدارات
عالم القرآن الكريم

- كتاب المدخل إلى علوم القرآن د.محمد فاروق النبهان
- كاسيت السبع المنجيات للقراء:

  الشيخ محمد مرطو

  الشيخ أحمد رشواني

  الشيخ بكري حلاق
- المشكاة لتحفيظ القرآن الكريم ((برنامج يعمل على الحاسب))
- اللؤلؤ والمرجان في ترتيب سور القرآن ((أنشودة))

- كتاب تفسير سورة الفاتحة د.عبد الله سلقيني ((تحت الطبع))
- كتاب قصة موسى والعبد الصالح

  فضيلة الشيخ عبد الهادي بدلة ((تحت الطبع))
- كتاب الفريد في علم التجويد عبير مؤذن ((تحت الطبع))